

كسالى في الوادي الخصيب

ألبير قصيري

الكتاب: كسالى في الوادي الخصيب

الكاتب: ألبير قصيري

ترجمة : محمود قاسم

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373



<http://www.apatop.com> E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قصيري، ألبير

كسالى في الوادي الخصيب / ألبير قصيري/ ترجمة : محمود قاسم

- الجيزة - وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

التقييم الدولي: 2 - 05 - 5772 - 977 - 978

أ - العناوين رقم الإيداع: 9896

كحالي في الوادي الخصيب رواية

وكالة الصحافة العربية

«ناشرون»



حالة ألبير قصيري غريبة ،فهو طوال أكثر من خمسين عاما يقيم بنفس الغرفة ،في نفس الفندق، في باريس لا يغادره ، ولا يفكر في أن يبحث لنفسه عن سكن يؤجؤه ، حتى أمه التي جاء بها إلى مصر لتعيش معه سنوات في نفس الغرفة وهي امرأة مصرية ولا تتكلم الفرنسية ، لم تغادر الفندق مثله .

إنها حالة من الكسل الملحوظ الذي يجب الوقوف عنده أو هو سلوك غير مبرر بالمرة ، فالكاتب حين تسأله عن هذا التصرف لا يرد عليك بإجابة شافية وكأنه يتكاسل أ، يجيب على هذا السؤال أو أي سؤال آخر، رغم ما يتمتع به قصيري من حيوية مطلقة ، رغم عمره الذي تجاوز الثمانين بعدة أعوام .

الكسل هنا حالة جوانية يمكن معرفة أسبابها عند قراءة روايات الكاتب القليلة ، والتوغل في سلوك الكثير من أبطال هذه الروايات .

الكسل إذن هو السمة الرئيسية في روايات قصيري ، والغريب أنه كسل رجولي ، أي أنه يتعلق فقط بالذكر ، ففي رواياته العديدة تجد أن النساء تعمل ، أيا كان هذا النوع من العمل ، بينما الرجال كسالى إلى أقصى حد ممكن ، ففي رواية "شحاذون ومتكابرون" فإن النساء هي

اللاقي يعملن في بيوت الليل ، يجلبن المال ، ويحركن العالم ، وفي رواية " متزل الموت الأكيد " فإن كل الرجال يبقون في المتزل الآيل للسقوط ، لا يغادرونه، بينما تتجمع الزوجات ويخرجن من البيت ، يصحبهن الأطفال، ويذهبن إلى صاحب البيت ، من أجل مواجهة ساخنة ، ويطالبنه بتصليح البيت، أما الرجال ، فإنهم يقبعون في الدار ، يفكرون فيما يمكن أن يحل عليهم، كل ما يفعلونه هو كتابة عريضة يرسلونها إلى السلطات المسؤلة، ويقرر أحدهم تشجيع جيرانه على عدم دفع الأجرة ، وذلك لأن صاحب البيت، بلا أجره ، وبلا بيت لا يكون صاحب بيت".

ولعل الرواية الأكثر إهتماما بهذه الظاهرة ، هي "كسالى في الوادي الخصب" ، ويبدو من تناقض عنوانها موقف الرجب تجاه الحياة ، وسوف نرى ان الرجال بالفعل هم الأشد كسلا ، لدرجة أن إحدى الشخصيات يمكنها أن تنام لعدة أسابيع ، أما النساء فهن مليئات بالنشاط والحيوية ، ويمارسن أعمالاً تجلبهن الأموال ، مثل الطفلة الخادمة هدى ، أو العاهرة إمتثال ، أو الخاطبة البدينة الحاجة زهرة ، فهن عناصر الحركة الوحيدة في هذا المجتمع.

والرجال الذين يعيشون في بيت ريفي صغير ، يكادون أن يموتوا كسلا بداية من الأب " العجوز حافظ " ومروراً بأخيه مصطفى ، ثم أبنائه الثلاثة : رفيق وجلال ثم سراج أصغرهم جميعا .

والكسل هنا حالة عدوى لدى الجميع ، هو نوع من المتعة والفلسفية ، ولا يتمثل فقط في أن الجميع يغطون في النوم طيلة أوقاتهم ، ولا

يجتمعون إلا مرات قليلة كل أسبوع أثناء لحظات تناول الطعام ، بل أنهم جميعا بلا وظائف، ويرتعب أحدهم بشدة من فكرة العمل ، والخروج في ساعات مبكرة مع الآخرين ليعمل ، وعلى طريقة تخويف الاطفال بتذكيرهم بشيء ، ما يرعبهم كالعسكري ، وبائع الجاز ، فإن ما يرعب رفيق ، كما سنرى ، هو أن عيشقته العاهرة ، تطلب منه أن يترك منزل أبيه ويعمل مثل بقية البشر .

وكما سبقت الإشارة ، فإذا كان هذا هو عالم الرجال الكسالى ، فإنه في المقابل، يتسم عالم النساء بالنشاط والحيوية والعطاء ، يبدو ذلك واضحا في دور "إمثال" كعاهرة - في الرواية التي بين أيدينا - في إقناع الطلبة الذين يترددون على بيتها وفي دور الحاجة زهرة في تنشيط الرجل كي تدفعه للزواج وإخراجه من حالة الوهن التي تعتز به ، فتعطيه الإحساس بأنه قادر ويمكنه أن يستمر .

أما هدى فهي الشخصية النسائية الرئيسية ، وهي لا تكاد تبلغ الثالثة عشر رغم عدم الإشارة الى سنّها في الرواية ، ففي الفصل الثاني من الرواية نراها هي التي تطبخ ، وتنظف البيت ، وهي العنصر الحيوي الوحيد في الدار ، ورغم تعرضها لمضايقات جنسية من رفيق ، ورغم إهانات العجوز حافظ لها لأنها لم تؤد واجبها حين نادى عليه ، فإنها هي الترس الوحيد الذي يعمل ويتحرك في وسط تروس كسوله يعلوها الصدا ، ولعلها تفعل ذلك من أجل حبها لسراج .

كما أنها صلة وصل بين رفيق وعشيقته إمتثال ، يرسلها إليها أكثر من مرة ، وفي الفصل الثامن تقوم بزيارتها ذات مساء .

وتبدو المرأة هنا تمارس أعمالاً وضيعة مثلما في أكثر أعمال ألبير قصيري ، فهي إما عاهرة أو هي مخلوق متمثل دوماً ، ولكنها مهما كانت لا تتمتع بكسل الرجال الذي يدفعهم الى النوم لساعات طويلة ويعتبرون أن لحظات اليقظة ، إما للطعام أو للذهاب إلى الحمام هي لحظات ضائعة ، ويطرح هذا الامر السؤال ، هل هناك علاقة بين إقامة الكاتب في نفس الغرفة بنفس الفندق طوال نصف قرن وبين كسل شخصياته ، وعدم إقباله على الشهرة وأيضاً على أن تترجم أعماله إلى لغات أخرى منها اللغة العربية ، لغة وطنه ؟ ، من الواضح أن هناك علاقة ، كأن قصيري قد سكب كل كسله ، وفلسفته في ممارستها في أغلب أبطال روايته المنشورة حتى الآن .

محمود قاسم

.. (1) ..

أمسك الطفل نبيلته وهو يكتنم أنفاسه ، حملق أمامه ، ثم رجع
برأسه للخلف ، فغرفاه . إكتسى وجهه بهياج غريب ، طار
الحجر مطلقاً صفيراً ، ثم إختفى بين فروع شجرة الجميز
فطارات الطيور دفعة واحدة وهي تطلق زقزقاتها ، لقد
خابت الضربة .

وقف سراج ساكناً فوق منحدر في طرف حقل الذلة ، انه يراقب الطفل
منذ فترة ، الطفل في الثانية عشرة من عمره ، يتورد الدم في وجهه ،
وعيناه الواسعتان أشبهتا بزهرة في رأسه ، يبدو كطفل ناضج ، يرتدي
ملابس رثة ، وكأنه قادم من مكان بعيد ، وعلى أكثر من مكان في جسده
تبدو آثار المغامرة ، بدا سراج مفتوتاً بمظهره ، وبالوحشية التي تبدو
عليه ، إكتسته الدهشة وهو يتابع هذه اللعبة الآلية ، من وقت لآخر
ينحنى ليلتقط حجراً ثم ينتصب كي يطلقه بنبلته ، انه يطلقه الآن دون أن
يصوب الضربة تلو الاخرى ، لاحظ سراج أنفاسه القصيرة المتقطعة لا
يمكنه أن يجمع نفسه من النظر إليه ، يتسم ببلاهة أمام هذا العنف الذي
يبدو ، وسط الحقول ، أقرب إلى كابوس .

كم من الوقت مر ؟ تذكر سراج أنه رأى الطفل ، ثم تغير كل شيء فجأة ، لا يعرف كيف حدث التغيير ، انه في كل مكان في الجو ، كأنه حالة من المعاناة المستشفقة .

كانت شجرة الجميز تنتصب على مسافة عشر خطوات منه بجوار الممر حيث تسقط فروعها الكثيفة ظلالاً ثقيلة ، يخترق الممر حقول الذرة، حتى الطريق الرئيسي الذي لا يظهر سوى جزء منه ، والذي تقع على حافته فيللاً مطلية باللون الأصفر المدغم بالأخضر معطياً لونا أشبه بزرقة السماء المكفهرة ، أحيانا يمر أوتوبيس بسرعة مثيراً خلفه ثلة من الغبار ، وأحيانا تمر عربة يجرها حمار ببطء شديد وتستغرق وقتاً حتى تختفي عن الأنظار ، لكن في تلك اللحظة بدا الطريق خاوياً .

كان الطفل يصطاد دائماً بعناد ، يناضل وقد تصلب رأسه ، وكأنه يهدد كل العالمين بنبلته ، وكأن القرية تثير غضبه عن بكرة أبيها ، يثور فيقذف السباب التي تتناثر من بين أسنانه التي لا يفتحها ، من وقت لآخر يتوقف ويرقب الطيور النادرة المختبئة بين فروع شجرة الجميز ، ثم يستكمل صيده وقد إستبدت به طاقة قوية ، يبدو كأنه لا يرى شيئاً حوله فينهمك تماماً في مهمته الشاقة .

أحس سراج بالخوف من البقاء وحده في الحقل مع هذا الطفل المتوحش الذي يتسلح بنبلته ، بدأ يحس بقلق حاد كاد أن يصيبه بالجنون ، ود لو يهرب وأن يفلت من هذا المنظر الذي يهدده بالخطر ، ولكنه لم يجرؤ على الحركة ، شعر أن جسده يرتجف ، وأن حلقة يختنق الألم ،

أعتره خوف غريب أمسكه من كتفه ، شيء لا نهاية له ، في كل حركة ، وبكل لمح من الطفل ، أحس بألم عنفيق يسري في عنقه منذ وقت لا يعرف مداه ، أخفض رأسه وبدأ يعض لسانه وهو بذلك كل عضلاته حتى لا يسقط مغشيا عليه ، كأنما الدموع ستفر من عينيه من البكاء برقة دون أن يمتلك مراجعة نفسه .

ادار رأسه بصعوبة وألقى نظرة حوله مليئة بالأس ، الحقل خاو تماما في هذا الريف المصري وحقول الذرة وقصب السكر ، تنبسط الأرض الواسعة التي تبدو وكأنها خالية تماما من الحياة ، عن بعد ، وعبر ضباب خفيف، يرى جذوع النخيل كأنها رسومات تتوازن أشبه بمراوح ضخمة، وسواقي تصب المياه تشبه الفضة، فجأت برزت في الأفق طيور "أبو قردان" وراحت تقف قليلا في السماء ، ثم نظر سراج الى جانبي الطريق، في اول الامر لم ير شيئا ، ثم شاهد امرأة متشحة بالسواد تسير على مهل، وقد مالت الجرة فوق رأسها ، لم يستطع أن يميزها جيدا ، لكنها على الأقل شيء حي يتحرك في هذا المكان .

كان من الصعب رؤية الشمس التي تختفي خلف السحب الكثيفة ، إنما شمس الشتاء الخافتة ، تلمع لكنها بلا حرارة .

من وقت لآخر ، قنب نسمة عبر الحقول فنهز أفرع نباتات الذرة ، فتبدو كأن موجة عاتية قد ثارت .. ثم تتلاشى شيئا فشيئا ، وتعود الاشياء كما كانت مرة أخرى ، نظر سراج إلى الطفل أحس كأن شيئا يصدمه في صدره وأن ساقيه تخوران من تحته وكأنهما قطعتان ، إستكمل

الطفل صيده وكأن صرعا يمتلكه ، كأنما شيطان يمسه في هذا الفراغ ، ظل سراج ينظر اليه دن ان يصدق نفسه ، أحس بنعاس يغلبه ، لكن كيف ينام أمام هذا المنظر المثير للقلق ؟ في الواقع كان ما يثير خوفه هو ذلك الغموض الذي يكتشفه ، الغموض في عالم متوحش ، ملئ ببشر أثقلهم العمل واخار قواهم ، لم يخدع سراج نفسه ، فقد أحس في تصرفات الطفل بكل سمات الإنسانية الضائعة المطاردة ، وأن كل عبودية البشر لم يصيها مثل هذا المشهد .. هل يؤمن بالقدر ؟ سمع سراج دقات قلبه كأنه على اعتاب الجحيم .

لقد سمع سراج أن الناس يعملون ، حتى لو ظلت هذه مجرد حكايات ، فهو لا يؤمن أبداً أن على الإنسان أن يعمل بعيداً عن هذه المهن ، الخصبة والعقيمة التي ليست لها أي جاذبية أ ، قيمة تستبد به رغبة منذ وقت طويل أن يرى أحد هؤلاء البشر الذين يعملون بمشقة بكلتا يديهم وهو يمسكون محاريثهم ، لكن يبدو أن هذا أمر صعبا للغاية ، انه لا يعرف أي وسيلة للوصول إليهم ، منذ أن بدأ يبحث عن عمل ، هو لا يستطيع الوصول إليهم ، في المنزل تعتبره أسرته مجنوناً أو ممسوساً ، عندما يحدثهم عن العمل ، لم يصدقهم احدهم ، ليس لأنهم بوغتوا بقراره ، ولكن لأنه لا يجيد أي مهنة ، لم يعرف سراج الى من يتوجه ، فكل من يعرفهم كذابين وليس لديهم فكرة عن العمل الحقيقي ، حتى هؤلاء الذين يمارسون أعمالاً شاقة لم يظهروا أمامه أبداً .. يبدو كأنهم اختفوا في اعمالهم ، كأنما ركبهم خجل أو خزي ، أنه يرغب ، أن يقترب من الناس في عملهم ، ليعرف كيف يبدو العمل .

لكن ، هل هذا الطفل المصاب بالصرع عاقل ؟ بالتأكيد انه لا يعرف الطريق ولا الوسيلة لو أن كان العمال يتصرفون مثله ، فسوف تصبح الحياة مستحيلة ، الا يوجد امامه سوى صيد الطيور ، ماذا سيغدو أمره لو عمل في مصنع ؟ لأن سراج لا يفهم العمل الجاد إلا في الآلات التي تعمل ، ولديه فكرة رومانسية عن العمل في مصنع ، وهو مشدوه بالأسلوب الرائع الذي يتم فيه انجاز عمل ما بواسطة الاف البشر ، ومن هذا المنطق لا يبدو له العمل شيئاً مهيناً ، إذن فما يفعله هذا الطفل لا يمثل أي نوع من المهنة .. حاول سراج ان يضع الغلام في إحدى درجات العمالة ، لكنه لا يمكن أن يضعه تحت أي تقسيم ، إنه يبذل جهدي سدى ، إنه نوع من الناس فاشل وبائس ولم ير سراج مثل هذا الطراز من قبل .

تملكه خوف مميت ، وهو يتساءل كيف ستنتهي الأمور ، ألا يوجد أحد يمكنه أن يوقف هذا الطفل ؟ لا يمكنه أن يظل واقفا هكذا مدة طويلة ، يحس أن أعضائه يملكها برد ثقيل ، وكأنه سوف يتبول كمضخة ، يعاني كأنه سيتقيأ ، زم أسنانه كي يمنع نفسه من الصراخ ، مال برأسه ناحية الأرض ، أغلق عينيه متجهماً بصعوبة ، تثائب ، وتمطع بكلتا يديه ، ثم جلس على المنحدر ، أخرج كسره خبز من جيب بنطاله وبدأ في فضمها ، وتذكر أنه لم يأكل شيئاً منذ أن استيقظ .

مر أتوبيس أخضر - أبيض فوق الطريق الرئيسي خلفاً وراءه جلبة شديدة ، تناثر الضجيج في المكان كله ، ثم إختفى شيئاً فشيئاً ، رأى

سراج الطفل يطلق طويته الأخيرة وقد إنتباهه الإحساس بالخلاص . ماذا سيفعل الآن ؟ .

تردد الطفل طويلا ، وقف بلهث وهو يجفف العرق الذي ينسال أسفل عينيه ، رفع طرفه ملابسه وكأنه يكشف عن ذكورته ، ثم بدأ يتسلق جذع شجرة الجميز كأنما تملكه شيطان ، فجأة رأى سراج شيئا ما يلمع في عينيه ، عرق قدر ينسال على وجهه ، لقد أفرغ كل غضبه ، لم يبق أمامه سوى فضول هائج ، وهم شديد مضطرب ، ركز كل إنتباهه الآن على قطعة الخبز التي يقضمها سراج الذي أغلق نصف عينيه ، كأنه إكتشف عالما رائعا ، تقدم بضع خطوات قد تسلطت نظراته على قطعة الخبز ، ووقف وسط الممر وقد باعد بين ساقية وفغر فاه .

تحركت سحابة ضخمة ، فظهرت الشمس بقصرها الاحمر ، وغرق المكان في ضوء خائر وخافت ، كاشفا عن مساحات شاسعة ، وكأنما كشف الأرض فجأة عن آفاقها ، إرتعد سراج ورمش بعينيه ، فضوء النهار يضايقه ويثير أعصابه ، نظر إلى الطفل ، الذي تجاهله وإستمر في التهام طعامه ، وأحس كأنه لم يدم طويلا ، فقد استيقظ مرة اخرى ، وأحس بوجود الطفل وبنظراته المتوحشة فكر فجأة أن يقوم وبرحل ، لكن هذا الموقف لم ينجح إلا في تثبيطه أكثر ، وكالعادة فإنه لم يأت إلى هذا المكان إلا لرؤية المصنع الذي لا يزال تحت التشييد حتى الآن ، هذا المصنع الذي يقع على مسافة مئات الامتار ، معزول وسط الحقول ، لم يود سراج أن يذهب الآن ، فهو بائع التعب ، لكنه يجد نفسه أكثر

شجاعة من أي وقت مضى ، تردد ، وفكر في أن يعد الى المنزل ، عندما تحرك الطفل مؤكدا تواجد به مهمة باكية ، لم يستطيع أن يتفاداه ، فناده:

- إسمع يا صغير ..

وكأنه بهذا النداء ينتقل إلى الواقع ، أطلق الطفل العنان لساقه ، وعبر الممر بخطى سريعة وهو يجر ملابسه الرثة خلفه كأنها أجنحة طائر ، رآه سراج فجأة أمامه شخصاص بئسا يثير الرثاء وهو يمسك بنبلة بيد ويمد له اليد الأخرى :

- هل تريد قطعة ؟

مد الغلام يده دون أن يرد ، ظل محتفظا بتحديه ، وهو يرمق سراج بعينه الجاحظتين .

لقد فقد كل ثقته في هذه الحيلة ، قسم سراج قطعة الخبز وأعطاه القطعة الكبرى .

- هل نسطاد منذ وقت طويل ؟

حشر الغلام اللقمة في فمه ، وقال وهو يهم بالذهاب :

- أجل ، منذ وقت طويل ، هل تقدر لي على شيء ؟

يراه سراج الآن عن قرب وقد إكتسى وجه بلون غريب ، وأهداب ثقيلة وجاذبية خفية ، إذناه تلتصقان بوجهه ، وراسه تغطيها جروح متناثرة ، هناك شق في ركن من شقته العليا ، بعض فمه في سخرية مثيرة للربح ، يظهر جسد مرن تحت أسماله وأعضائه المتناسقة ، انه بالفعل نموذج مرعب جاء من عالم اليأس والنضال ، فهم سراج الآن سبب الغم الذي يتناثر من حوله .

ليس نتيجة لمنظره البائس ولا لوجهه الإجرامي ، لا ، فهذا الغم هو رسالة عالم يتألم ويعاني وأضاع سنين حياته ولم يكن منها سوى الشحوب وعدم اللاوعي ، أشبه بحيوان مسكين مطاردي يبحث له عن مصير وقد كتفته الأخطار ، لكن أي أخطار؟.

هذا هو ما أراد سراج أن يعرفه على وجه التحديد ، هذا الغموض الذي يغلف قسوة حياة البشر .

إلتهم الغلام لقمته بسرعة غريبة ، وقد إعتبر أن هذه وجبته المناسبة ، فسأله سراج :

– إذن ، فأنت تصطاد الطيور ؟

كف الغلام عن الأكل ، وقد اكتسى بشعور عدواني وقال :

– أنا لا أتسلى ، بل أصطادهم لأبيعهم ، هل تعتقد أن أمامي وقتا كي أضيعه ؟

بدا كأنه شخصية هامة ، وهو ينظر الى سراج بعينين مليئتين بالثرثاء :

- آسف ، لم أكن أعرف أنك تعمل ، من الرائع أن يعمل المرء هنا .

رد الطفل : انه عمل ملعون ، فلم استطع اصطياد طير واحد منذ الصباح وكأن شيطانا تسلط عليهم .

يبيع الطيور، بالتأكيد أن تجارته أشرف من غيرها ، لم يأخذها سراج في حسبانها ، لكنها بدت له شيئاً رائعاً ، وأكثر أهمية ، هل يسخر الطفل منه ؟ لعله يتحداه، فكر في محاولاته اللامجدية وفي قسوة الطفل ، فلم يستطيع أن يمنع نفسه من الاعجاب به ، ربما انه نوع العمل الذي ينشده، أراد أن يسأله بضعة أسئلة، وأن يعرف تفاصيل هذه الصناعة الهامة المليئة بروح المغامرة والمخاطرة، ربما يمكنه أن يمتحن هذه المهنة يوما لو كانت مربحة ، سأله:

- هل تكسب منها نقوداً كثيرة ؟

لم يرد الطفل ، إنتهى من لقمته ، وبدا كأنه يعيد مضغها ثانية فجأة بدأ يفقر فوق ساق واحدة ، ويدور حول نفسه كأن شيطانا مسه ، وكأن هذا التمرين يغرقه في حالة من الشمالة النادرة ، لمع وجهه في سعادة واضحة ، لم يعر سراج إنتباها ، وبدا كأنه نساها تماما .

ظل سراج ينظر الى الطفل من فوق المنحدر ثم دعك عينيه حتى يتأكد أن غيبوبة لم تملكه ، لقد باغته تصرف الطفل ولم يفهم شيئاً من هذا التحول ، فإنغمس بخياله في واقع مشير لم يدخله الطفل بغته ، ينتقل دائما

من حلم عبثي الى واقع مرعب ، لم يستطع سراج أن يتوصل في منظره
هذا أنه قادم من عالم ملئ بالمتاعب .

بدأ بعض رذاذ المطر يتساقط فيجعل المكان أكثر حزناً ، تنبه سراج
من أفكاره عندما سقطت عليه حبات المطر ، هب في جلسته ، لكنه ظل
قابعا فوق المنحدر وقد عقد ذراعيه حول وجنتيه — توقف المطر فجأة
واندلع ضوء البرق ، غطت السحب الشمس ، ثم من جديد ظهرت بين
كتل شبيحة ثقيلة أشبه بالأطباق ، ظل الطفل يدور حول نفسه ، وهو
يلهث وقد إكتسى بمتعة غريبة ، لاحظ سراج أن ساقه التي في الهواء
مربوطة بشاش قدر ، هاصة الكعب :

— هل جرحت في قدمك ؟

— هل أنت أحسن الآن ؟

— أجل ، أفضل ، ولا يهملك ، أخبرني .. هل معك خبز آخر ؟

قال سراج : لا ، لم يكن معي سوى اللقمة التي إقتسمناها ، آسف ،
أنزال جوعانا ؟

قال الطفل : أنا جوعان دائما ، وماذا ستفعل بعد ذلك ؟

— بعد ماذا ؟ ماذا تقصد ؟

— أقصد ، عندما ستجوع

رد سراج : سأعود إلى المنزل لأتناول غذائي

- آه ، إذن فأنت من الذين لديهم منازل .

رد سراج بسداجة : أجل فلدينا منزل قريب من هنا ، قريب من الطريق الرئيسي .

أحس فجأة بالخجل وكأن الطفل يرمقه بإحتقار شديد ، رد :

- أنت تعرف انه ليس منزلي ، انه منزل أبي ، وانا اسكنه فقط ، وأنت ، اليس لديك منزل ؟

قال الطفل : كان لدينا ، لكنه سرقه مني .

- سرقه منك ؟ كيف ؟ ومن سرقه ؟

- ولد أجرت له نصفه ، كنا نسكنه معا ، وذات ليلة عندما عدت لأنام لم أجد البيت ولا الكوخ .

قال سراج هلعا : كوخ ؟ أي كوخ ؟

قال الطفل : البيت هو كوخ من الخشب ، أعتقد أنني صاحب عمارة.

قال سراج معتذرا : لم أفهم جيدا .

قال الطفل في أسف : كان كوخا جميلا ، كان قريبا من الاسواق ، يحمي من البرد ، خاصة في المكان المخصص لي ، كان أفضل من شقة ،

هل تصدق .. كم قضينا أوقاتا طيبة أنا وهذا الولد ، ندخن أعقاب السجائر ، وأحيانا ندعو أصدقائنا عندنا .

- وكنتم تجلسون جميعا فيه ، إذن هو كوخ كبير .

- لا ، كان الآخرون يجلسون بالخارج ، أما أنا والغلام فنجلس بالداخل ، فهو كوخنا .

- ألم تكن تدعوهم للبقاء معكم ؟

- من وقت لآخر ، كان أحدهم يجلس في مكان للحظات ، لكنه لا يجلس طويلا ، والا أخرجته بالقوة إذا لم يفعل .

- وهل سرق هذا الولد كوخك ؟

- أجل ، إنه لص وابن كلب ، أبحث عنه دائما ، ألم تره هنا ؟

- لا ، لم أره ، ثم كيف أعرفه ؟

- انه معروف تماما ، فأمه أكبر عاهرة في الدنيا .

هذه الحكاية جعلت سراج يفكر قليلا ، وراخ يتخيل ، بفرحة غير بادية ، وجود هذا الطفل المغامر ، فما أشبهه به ! انها ليست فقط المغامرة التي تغريه ، لكن حالة اليقين التي وراء هذا الوجود الجامح والهائم ، كانت هناك حقيقة واضحة ، وملموسة يرغب في أن يبلغها ، ومنذ أمد طويل فهو يناضل كي يتزع نفسه من شيء أشبه بمجرح مفتوح ينسال

الدم منه ، أراد أن يحس بمشاعر تخريبية ، وأن يواجه أخطارا مرعبة ، وأن يواصل النضال بكل جسارة الاحياء ، لكنه كان في نفس الوقت خائفا بشدة من هذا العالم المجهول الشديد الأذى والملئ بالمعاناة الدائمة والنذر المظلمة التي تدفعه أن يدخل في مغامرة عابرة كهذه ، فإحساسه بخواره يحطمه ، ويلقي به دائما في عالم الكسل العريق حيث نما شخصا خاملا في منزل الأسرة ، يحوطه أمان أكثر عدما من الموت ، فهو لم يبلغ أبدا هذه الدرجة من الحرية ، وهذا الاحترام غير المحتمل من أن يعيش حياته كطفل ، أحس أن بينه وبين العالم الذي يعيش فيه ، خواء لا نهائي يمتلئ بالنوبات السوداء .

عادت الطيور إلى أفرع شجرة الجميز ، تبدو الآن أكثر هدوءا وقد ملأت الهواء بأصواتها الصداحة الجميلة ، ومن وقت لآخر ، راح الطفل يتحدث من ناحيته ، لم يغفر لهم مرارته كصياد خائب ، وفكر في أن يستأنف تجربته الفاشلة في وقت آخر ، انه يوم ضائع بالنسبة له ، وأيضا هو واحد من أيامه الطويلة التي بحث فيها بلا جدوى عن كيانه ، لكنه لم يبلغه بأي ثمن ، إرتعش تحت ملايسه التي بدت خفيفة ، وكأن كل البؤس لم يتمكن بعد من طلعتة العنيدة ، عقد ذراعيه بقوة على صدره ، ثم راح يقفز بكل فرحة .

أما سراج فقد انسحب في تكاسل ، وحاول أن يقوم ، لكنه سقط لتوه فوق المنحدر ، حاول ثانية ، فنجح هذه المرة في أن يقف ، دعك عينيه ، وقال موجهها كلامه للطفل :

- ألا نتمشى قليلا يا صغيري ! يجب أن أذهب الى المصنع ، هل تصحبنى ؟

- هل هناك مصنع ؟

- نعم ، إنه مصنع تحت التأسيس ، لا أعرف ماذا حدث ، فقد توقف العمل فيه منذ شهور .

قال الطفل : ربما أن صاحبه قد مات .

قال سراج : لا أعتقد (ثم أضاف بلهجة مريرة) وإلا كانت مصيبة كبيرة !

- لماذا ، هل هو قريبك ؟

- لا ، ليس قريبي ، ولكنني أهتم بالمصنع ، إذا جئت معي الى هناك فسوف أشرح لك ، أحس وسط آلامه انه في حاجة الى وجود شخص ما ، ففي أعماقه ، كان يعرف أنه لن يصل وحده الى المصنع ، وإنه سوف ينام بكل تأكيد وهو في الطريف ، مثلما حدث له مرارا من قبل ، قال الطفل :

- لا أستطيع مصاحبتك ، يجب أن أستكمل صيدي (وتردد قليلا) ولكن إذا أعطيتني تعريفه فسأتي معك ، فأنا ليس لي منزل آكل فيه ، وأنت تفهم !

فتش سراج في جيوبه ، وجمع بعض الفكة ، وجد من بينها قطعة
بلمين ، انما عمله مزيفة يحتفظ بها منذ أمد طويل ، وتذكرها الآن فجأة ،
قال للطفل وهو يمد يده له بالعملة :

- ليس معي الكثير من النقود الآن ، ولكن معي بلمين ، هل
تكفيك؟

قال الطفل : لن نتساول ، ماشي ، هيا بنا ! .

واخترقا الدرب الذي يغوص عبر حقول الذرة ، راح الطفل
يمشي في المقدمة وهو يعرج قليلاً ، لم يعرف إذا كان هذا
سبب قدمه الجريحة أم أنه يتصرف كبطل شهيد ، فمنذ أن
أمسك بهذين المليمين راح يتصرف كأنه ثري مستجد ،
وكأنه مصاب بوقار غير محتمل ، نزع كوع ذرة ثم فصص
أوراق النباتات الجافة ، والقاها فوق الارض مشمئزاً ، لم
يعره سراج أي إنتباه رغم أنه أحس بوجوده ، وان تصرفه
الغريب يمنعه من النوم ، يمشى كأنه نائم ، بينما الضباب
الخائق يحترق وجهه .

منذ قليل ، إشتد البرد قليلا ، فراح سراج يرتعد مع كل هبة ريح ، ولم
تحتمل "تلفيعته" الصوفية الحمراء ، الملتفة حول الرقبة إلا قليلا ، فبدأ
يعاني من بعض الألم ، ما يؤلمه فعلاً هو حذاءه ، فدائماً عندما يذهب
لمراقبة المصنع الذي تحت التأسيس ، فإنه يرتدي حذاء كرة القدم القديم ،
آخذاً في حسابه سنوات الدراسة الذي يثقل خطواته ويؤلم قدميه ،
فليست هناك أي قصة خيالية ، يمكنها أن تصور أهمية هذه الاشياء التي
تولد داخل مخه إحساسا عميقا، أراد سراج أن يتأكد بنفسه ، فهو
ينصرف كأن هذا نوع من الحج وأنه ذاهب لحمله خطيرة ، ففكرة
ممارسة شيء لم يستعمل تماًلأ بنوع من الخطوة ، وبدون هذه الخطوة ، فلن

تنتابه أي شجاعة أن يجرب شيئا ، انه يرتدي هذا الحذاء من الكاوتشوك ،
كحالة أساسية للتخفيف عن النفس .

فجأة أتسع الدرب ، ووجدنا نفسيهما في أرض مزروعة بالبرسيم حيث
يوجد كوخ فلاح من الطوب اللبن ، منكس قليلاً ، يظل على حدود
ترعة قديمة ، تعلوها الأعشاب ، وعلى مقربة منها توجد بقايا ساقية
مهملة ومغطاه بالتراب .توقف سراج ، فهو لا يمكنه أن يتقدم أكثر ،
جلس مسترخيا عند قمة خط المحراث وغرق في دموعه ، كما خطا
الطفل أيضا بضع خطوات ، ثم استدار ، وعاد نحو سراج ، وقال له :

- هيا ، فليس لدي وقت اضيعه ، لقد دفعت لي كي أصبحك ،
فلنسرع .

قال سراج متوسلا : أنا متعب ، فارحمني

تساءل الطفل : هل تبكي ؟ لماذا ؟ هل أنت مريض؟

- لا عليك ، فلست مريضا ، بل أنا بكل بساطة متعب ، قف معي
دقيقة .

قال الطفل : لا يمكنني الإنتظار ، كف عن البكاء ، يانهار أسود ! في
الواقع هذا المصنع غير موجود .

قال سراج : بشرفي أنه موجود ، ستراه قريبا ، لسنا بعيدين عنه الآن

- ولماذا تريد رؤية هذا المصنع ؟

- الآن سأشرح لك ، وسترى كم هو مهم.

فكر الطالب مليا ، ترى أي سبب يدفع هذا الشاب النائم للذهاب
لرؤية مصنع ؟ وبدا كأنه وجد السبب لتوه.

- أخبرني : هل تبحث عن كتر ؟

قال سراج : لا ، ليس عن كتر .. انه فقط مصنع تحت التأسيس ،
صدقني لا يوجد كتر .

قال الطفل : ولا يهملك ، لعلك تراه كالكثر .. والآن قم ! فقد
انتظرت بما يكفي ، انه يوم ضائع بالنسبة لي .

قام سراج بصعوبة ، ومرور أصابعه في شعره ، ثم دقق في الأفق كأنه
يبحث عن مخرج تحترق بعض العساليج أعلى سيقان الذرة بعيدا ، ونهرب
طيور أبو قردان تحت السحب المنخفضة ، تعرف سراج على المكان
،فوضع يده على كتف الطفل واستعد لاستئناف السير .

لم يمشيا طويلا ، وصلا عند أطراف قطعة أرض ، واستدار يسارا ،
وعبرا قناة يابسة ، ثم عبرا تله صغيرة ، قال سراج :

- ها هو المصنع !

وفي أرض واسعة بور ، تبدو كأنها بقعة جرداء ،بدا المصنع الضخم وسط كومة من الركام والمداخن المنهارة ، أنها منطقة غريبة وخطرة ومدهشة يحوطها الخطام ، يبدو المصنع أقرب الى ورشة مدمرة ، لا يرى فيها سوى ألواح من الجدران مشيدة حتى منتصفها ، بهندسة معمارية تكاد تكون بارزة ، ينتشر فيها نبات العليق وحولها بقايا حديد ودبش مغموس في التراب ، في ركن من نهاية الحقل ، وشاهد أعمدة حديد التسليح وقد غطتها طبقة من الزنجرة السمكية .

لا يبدو أي إنسان في الورشة ، وتبدو الاعمال كأنها قد توقفت منذ فترة طويلة ، فمنذ ستة أشهر لم ير سراج شخصا يعمل ، ولم يفهم دوافع هذا التوقف ، فهو يأتي مرتين أو ثلاث اسبوعيا .

آملا أن يرى البنائين يستكملون العمل ، ولكنه يصاب دائما بنفس الخيبة ، فقد ظل المصنع متوقعا في سكونه ، يعطي الإحساس إنه تمثال أو ديكور .

فقد الطفل إفراطه الجنوني ، وإنتابه الذعر وأصبح فريسة لخوف شديد بدا كأنه قد نسى الكثر ، سأل:

– هل هذا هو المصنع ؟

أجاب سراج : نعم ، أتساءل لماذا لم ينته العمل به ، أريد أن أعمل هناك .

– أي مصنع هو ؟

- أعتقد أنه مصنع نسيج ، أتمنى أن يوظفوني .

- وإذا لم ينتهوا منه ؟

قال سراج بيأس : إذن فلن أستطيع العمل ، بمعنى أنني لم أعمل ابدا ، لكنني أريد أن أبداً .

قال الطفل : أنت مجنون ، هل تريد أن تعمل في مصنع ؟ أنه يوم أسود على أمك !

- أسمع يا صغير ! أريد أن أعمل ، أعتقد أنني أستطيع أن أفعل الكثير .

ماذا تود أن تفعل ؟

- لا أعرف بعد ، يجب على الرجل أن يعمل ، ألا تؤمن بذلك ؟

هتف الطفل : أنت لك بيت تأكل فيه ، وتريد أن تعمل ، يا لها من فكرة سوداء !

وظلا لبعض الوقت لا يتكلمان ، ثم سأل الطفل :

- لماذا لا تبحث عن عمل في المدينة ، إذا كان لديك ما تعلمه ؟ لأنه حسب رأي ، فهذا المصنع شيء مناسب للاستخدام كمراحيض .

قال سراج : لا أستطيع الذهاب إلى المدينة ، فهي بعيدة ، أما هذا المصنع ، كما ترى ، فهو قريب جدا من بينتنا ، ولن أتعب في الذهاب إليه .

- أنت سريع التعب ، هل أنت مريض ؟

لم يرد سراج ، كان موضوع المصنع بمثابة حجة ، يعلق عليها يأسه ، لكن في أعماقه يعرف أن بناء المصنع لن ينتهي قط ، وعليه فلن يخاطر بممارسة أي عمل فيه ، وعندما يضع في حسابه هذا الخداع ، فإن سراج يوده بشكل مرعب ، فهو بائس تنتابه تبكيات لا تنتهي ، وكى يتبرأ منها ، فإنه يتساءل إذا لم تكن هذه هي البداية ، وعم سيفعل لو شعر بأنه إكتفى ، فالجراحة تتمثل أنه بهذه الزيارة لرؤية المكان الذي عليه أن يعمل فيه ، انه مجهود يستحق الاحترام والثقة في الذات ، ألقى نظرة أخيرة على المصنع الذي يم ينته بعد ، وفكر بعمق أنه في طريق التقدم الاجتماعي ، وهنأ نفسه من الداخل .

إستكملت السماء تحريك سحبها الكثيفة بشكل سيء وتسلمت الكتابة العصبية الخفية في حنايا المنظر ، غازية الريف الذي يدنو منه المساء ، وعلى مقربه من المصنع الغير متكامل ، راح كلب أليف يتجول بين الركام ، انه يتجول في كل مكان بكامل حرите ، كأنه فقد كل آماله ثم إختفى وراء جدار ، انتظر سراج أن يراه يعاوده الظهور ، ثم إستدار نحو الطفل ، الذي ثار من جديد ، وراح يشد نبلته في الهواء دون أن يحدد

المهدف ، ببساطة من أجل متعة الحركة ، بدا كأنه غير منشغل بسراج وإنه عاد إلى الصعلكة ، وفجأة ، توقف ، وقد بدا عليه القلق .

– هل تعرف كم الساعة ؟

سعل سراج ، ونظر إليه دون أن يفهم ، وقال :

– الساعة ، يا الله ! لا أعرف ، لا أعرف في الساعة ، هل أنت على عجلة ؟

قال الطفل في وقار مصطنع : كل الأغنياء يملكون ساعات ، وهناك الكثير من الأغنياء في المدينة لديهم ساعات ذهبية ، لقد رأيتهم .

قال سراج : آمل يوماً ، وأنت أيضاً ، أن تكون معي ساعة ذهبية .

هتف الطفل : أنا ، مستحيل ، إلا إذا سرقتها

– حسنا ! سوف تسرقها

وفي طريق العودة ، إنغلق الطفل في صمت كثيب ، لم يعد يعرج ، وقد بدت عليه العزة والتيقظ والتنبه ، بدا كأنه قد وعى أن ليس لديه شيئاً يقوله لصاحبه ، فهو مستعد أن يتركه لتوه ، فهناك مغامرات أخرى تعلن عن نفسها .

توقفا عندما وصلا إلى الطريق الرئيسي ، أخرج سراج يديه من جيوب بنطاله ، وأبقى ذراعيه متأرجحان وهو لا يعرف كيف ينفصل عن الطفل ، تذكر أنه لا يعرف اسمه ، سأله :

– ما اسمك ؟

رد الطفل : اسمي عنتر

أطلق هذا الاسم كأنه نوع من التحدي .

أحس سراج بخيبة أمل ، فهذا الاسم "عنتر" يبدو له غير ملائم وغريب جدا بالنسبة للذكرى التي تريد أن يحفظها للطفل ، سأل أيضاً :

– أخبرني هل لك اسم آخر ؟

صاح الطفل مندهشاً : اسم آخر ، لماذا ؟ ألا يعجبك ؟

إحتار سراج ، ولم يعرف كيف يرد :

– أريد أن أعرف إن كان لك اسم آخر ، بمعنى اسم أكثر رقة ، مثلاً ، الاسم الذي تناديك به أمك وهي تدلك .

صاح الطفل : ياإلهي ! أنت مجنون ! هل لدى خيشوم كي أدلل ! أرى أنك لا تفهم شيئاً ، لقد ضيعت وقتي ، السلام عليكم .

- لا تغضب ، لم أشأ أن أسبب لك ألم ، صدقي ، إذا مررت ثانية من هنا فلا تنسى أن تأتي لتراي ، فمزلنا ، قريب من الطريق ، على يسارك ، إسمي سراج .

وبينما يتكلم ، إنطلق الطفل بعيدا ، وما أن رحل الطفل ، حتى أحس سراج بالوحدة ، ظل للحظات عند حافلة الطريق مشوش الفكر ، ثم إستكمل طريقه نحو المنزل .

إنه طريق واسع ، مسفلت ، تحفه الاشجار القديمة ، مشى سراج فوق الممر ، وقد تقوس ظهره ، وثبت عينيه نحو الارض ، فكر في التفاصيل المثيرة للقاءه بالطفل الذي رحل لتوه ، أسلوبه الغريب ، وحماسه الحي ، فمئذ رحيله ، وسراج يحس بالفراغ ، لم يعرفه قط من قبل ، مرت سيارة على مسافة سنتيمترات منه ، وقد إنفتحت ماسورة العادم فإنطلقت منها رائحة بترين يحترق في الهواء ، دخل خياشيمه ، وخنقه فسعل ، إمتلأت العينان بالدموع ، فتوقف جانبا ، وانتظر لحظة حتى توقف السعال ثم عاود المسير وهفت عليه ذكرى الطفل ، وفكر أن يترك كل شيء كي يلحق به فتوقف ، نظر خلفه آملا أن يراه ، ولكن كان الطريق خاليا في الأفق.

وبعد لحظات ظهرت فيدلا محاطة بسور حديدي ، مغلقة النوافذ ، تبدو على جانب الطريق ، فهو كإنسان ميسور يعيش هنا دائما ، تساءل سراج وهو يشعر بالفخر لانسحابه إذا كان يمكنه ان يندس من بين هذه الجدران ، وأن يهرب من حياته البائسه مثل الفئران في أعماق جحورها ،

أي حقارة ساخرة ! إنه هكذا في كل مكان حوله ، ألن يخرج قط من هذا الخداع الضخم ، من هذا الوحل الراكد ؟ يجب أن يكون هناك شيء في عالم يسكنه الإحياء ، وليس مجرد جثة عفنة ، ولكن أين هذا العالم ؟

علي يمينه ، هناك الآن ثلة كبيرة من المنازل ، والعمارت ذات الثلاثة أو أربعة طوابق تبدو بسيطة ، بعضها قديم للغاية ، وقد أزيلت قشرتها ، يسكنها برجوازيون صغار ، وموظفون على المعاش هربوا من صخب المدينة للبقاء عند هذا الطريق في ضاحية بشعة ، وعلى مسافة بعيدة تملأ المنازل الحقول من كل جانب بالطريق ، تبدو كأنها مدينة تكونت عبر المحاريث ، والحارات الضيقة ، حارات من الطوب اللبن ، والأرض مستوية مليئة بالقاذورات تحفها خطوط متعددة الألوان ، تتجفف في بعض النوافذ ، تبدو البقع الواضحة التي تبرز قليلا هذه الأكوام الباهتة ، ويظهر أحيانا قليل من الأشخاص كأنهم هاربون أو كأنهم يعطون للموت.

مال سراج نحو الجانب الأيمن من الطريق ، فوق ارتفاع عشرة امتار توجد مجموعة من المباني المنخفضة ، بلا طوابق ، انها حوانيت تجارية ، توقف سراج أمام الحانوت الاول :

- السلام عليك يا أبو زيد .

رفع الرجل ، الجالس أمام حانوته رأسه ، هزما دون أن يجرکہا ، انه يجب داخليا على سلام الشاب بلا مبالاة بادية ، أنه شخص شديد الكسل ذو عينان مدمعتين ، وفم أهتم بسبب منه اللعاب ، ذو لحية كثة

، ومصبوغة ، يبدو نائم الوجه ، يضع على رأسه طاقية من ا لصوف
المجدول ، وشاله الأسمر يغطي كل جسده تقريبا ، وبكل هدوء أسند
ظهره على جدران الخانوت ، إنه يتدفأ على ضوء أشعة شمس مترددة
خافتة ، وأمامه سلال مليئة بالخرنكش ، وبأخشاب الشيش ، ولب يطبخ
فوق قمطر منخفض ، وفي الداخل يبدو الخانوت خاويا ، سأل سراج :

– هل التجارة على ما يرام ؟

أجاب أبو زيد :

– الله يلعن التجارة ومن إخترعها ، انها يؤس على العواجيز مثلي ، لا
أستطيع أن أدفع أجرة هذا المحل الملعون .

– انه محل أكبر من أن تبيع فيه الخرنكش يا عم ابو زيد ! لقد
أخبرتكم أن بيع الخرنكش ليس مهنة لرجل .

رد أبو زيد : ماذا يمكن للرجل أن يفعل ، يا بني؟ ألم تفكر لي في
فكرة، أنا بين يديك .

قال سراج : مازلت أبحث

وأقترب من إحدى السلال ،أسمك حفنة من خشب الشيش،ودفعها
بنهم في فمه ، وراح يمضغها طويلا، وقد أربكته فكرة أن يصيبه مرض
غريب ،في الحقيقة لم يكن يعرف الشكل المناسب الذي يمكن ان يكون
عليه هذا الخانوت ، انه ليس من نوع العمل الذي يرغب في الإقتراب

منه ، انه بمثابة أحد المظاهر اللئيمة لكسل أبدي ، ألقى أبو زيد نظرة واهنة نحوه .

ملئمة بالغباء المطلق ، وبصيرته العجيبة ، فمنذ فترة طويلة تحدث الى الشاب عن إقترح بتجارة هي بالنسبة لخله كبيرة جداً على بيع الحرنكش، ويرهن له عن مشاعر مودة ، تختلط فيها غريزة الفضول بعاطفة النوم ، اما بالنسبة لسراج ، فهو يجئ دائماً كي يثرثر مع التاجر ، وهو يجب أن يسمعه يحكي القصص عن شتى المشاكل الزوجية ، فإبو زيد يعرف شهرة أسرة الشاب ، ويمكن إحترام كبير للسلوكيات الغريبة التي تتسم بها ، ويراهم أموراً متلائمة تماماً ، فهو نفسه يميل بقوة الى انماط الفتور العام ، وأيضاً لديه فكرة عن تجارة تناسب تفكير فرد من أسرة كسولة ، ولا تستطيع على أي حال أن تحتل المخاطرة ولا المزيد من التعب ، انتظر أبو زيد ، والسلام يسكن روحه ، أن يمنحه الشاب نصائحه الكريمة .

دامت لحظة صمت ، وبين اللحظة والآخرى ، يمد أبو زيد يده أسفل ملابسه ويمسك ببرغوث ، ثم يفحصه بين أظافره ، وهو يغلق عينيه راضياً ، بدا كأنه يمارس شعائر خاصة ، وهو يتحرك ببطء محسوب ، وبعد أن تخلص من بعض هذه الأمور غير المرغوبة سأل فجأة ، وقد استعاد منظره السعيد :

— أخبرني ، يا بني ، هل أستودعك أخوك جلال قبل أن ينام ؟

– ولماذا يستودعني ؟ أنت تخرج يا رجل

أكمب أبو زيد : يبدو أنه ينام شهراً دون أن يستيقظ ، أليس كذلك
يا صغيري ؟

وزينت فمه الأهم إبتسامة إعجاب ، كأنها ندبه ، قال سراج :

– انما حكايات مرعبة ، كيف تقول ذلك يا رجل ، هل تصدق مثل
هذه الغباءات ، صحيح أن أخي جلال ينام كثيراً ، قد ينام أحياناً يوماً
بأكمله ، أما بالنسبة للنوم لشهر كامل فلا أحد في الدنيا يمكنه أن يفعل
ذلك ، صدقني إنما حكايات غير صحيحة .

قال أبو زيد وقد انتابه بعض الخيبة : الأشرار كثيرون ، إنهم يرددون
الكثير من هذه الاشياء .

أحس سراج بكثير من الخزي ، فهو لا يذكر أنه سمع فقط مثل هذه
الحكاية عن أخيه ، صحيح أن جلال قد ضرب كل الارقام القياسية في
النوم ، وأنه قادر على أكثر من هذا ، فهو لا يستيقظ إلا كي يأكل أو
ليذهب إلى دورة المياه ، ولكن اتهامه بالنوم شهر كامل ، فيه بالتأكيد
مبالغة ، لم يتساءل سراج إذا كان كلام الناس قد أدخله ايضاً في هذه
الشائعة المرضية ، أنه يعاني من تكبده لخموم ثقيل يربطه بكل أفراد
أسرته ، لكن شبابه كثيراً ما ينقذه ، ولكن الى متى يدوم هذا ؟ لا يوجد
عمل يمكن أن يخرج من هذا الوسط ، انه مستبعد جداً ولا يجزؤ أن
يفكر فيه .

والى جواره ، في محل مبيض نحاس ، يتلوى مبيض فوق حلة صدأه ،
بينما يساعده صبي صغير نافخاً بأنفاسه اللاهثة في النيران ويخلق بعض
ذباب الشتاء في صمت ، انما قليلة ولكنها مترعجة ، هشها أبو زيد بيده
بحركة محدودة غير مؤثرة ، هناك خادمة تتسوق وهي تتبادل بعض
العبارات المختلطة مع بائع خضروات مسموح له أن يكبل له بعض
عبارات المديح ، يرن صوته وسط الطريق كأنه هيسترى لا حدود لها ،
وكأنه يريد أن يغتصبها أو أن يترع عنها عينيها ، هز أبو زيد رأسه أمام
هذا العرض من الحشائش الإنسانية وإستغرق في أفكاره التافهة .

لقد عثر على فكرة يعتقدونها عبقرية بالنسبة لتجارته .

– بالنسبة للمحل يا بني ، ما رأيك لو بعت فجلاً ؟ فالفجل جميل .

ردد سراج : لا مانع ، ولكن ليس هذا ما يناسبك ، أنت لا تفكر أن
تملاً هذا الحانوت بالفجل ، سيكون أمراً غريباً .

قال أبو زيد : الغريب أن آراه خاليا مثلما هو الآن ، صدقني ، انه
يخيفني .

– أصبر بضعة أيام ، أعدك أن أهتم بالأمر ، أتعرف يا أبو زيد ، انني
الآن أمارس بعض الأمور التافهة ، وسوف تتحسن الأمور ، سوف أجد
فكرة مدهشة لتجارتك .

– ليحفظك الله يا بني ، عليك فقط أن تسرع ، لا تحاول أن تجد لي
أفكاراً غريبة أو متعبة ، فأنا رجل عجوز ، ولا أستطيع أن أسمح لنفسي

بأعمال خارقة ، فمثلما نرى ، فإن قواي تخور يوما وراء يوم ، فأنا أثق بك ، وليعينك الله .

تبع متاعب أبو زيد من مأساة عائلية لم يتكلم قط عنها الى الشاب ، دفعته شهامته أن يتكتمها في صمت ، فأبو زيد ضحية لحماية شرسة يملأها الطموح ، تعامله طيلة النهار كعجوز خائب ، وأنه تاجر فاشل وعاجز ، ولذا تجعل حياته صعبة ، وتحت إبنتها على التمرد ، لدرجة أن أبو زيد وصل إلى درجة أن راح يتسول مداعبات زوجته ، وأيضا أن يهرب من تبكيت هذه الحماية الغاضبة ، وبعد بضعة أشهر ، قبع في ركن من الشارع حيث يعرض بضاعته كي يؤجر هذا الحبل الذي يجعله تاجرا بلا تجارة ، وها هو يجد نفسه الآن واقعا في مطب ، أنه يحاول أن يخفف ، قدر الامكان ، من الشر الذي يهدده .

مر أتوبيس ، ثم توقف في المحطة القريبة ، نزل بعض الرجال ، الذين هرولوا بكل سرعة نحو مساكنهم ، إنهم عائدون بلاشك من أعمالهم ، ولكن أي نوع من العمل ؟ ، تطلع إليهم سراج بنوع من الإزدراء ، لا يبدو عليها أنهم سعداء ، بل حزانى ، هم أيضا يجب أن يناموا في مكاتبهم المرتبة في بعض الوزارات ، ولأن هذا يزعجهم بشكل خاص ، فعليهم أن ينامسوا في بيوتهم ، يجب أن يحل أحد مكائهم كي يناموا في أي مكان ، وأن يعطوا هذا الإحساس أنهم انجزوا أمورا كبرى ، فسراج يكن لهم إحتراما كبيرا ، وهم يختفون جميعا في كل الأبواب الكبرى ، إستأنف الأوتوبيس مساره منفثا وراءه كما من الدخان الأزرق .

راح أبو زيد يحفف لحيته بطرف شاله ، ثم وضع قليلا من الحرنكش
في السلال ، وسأل بكثير من الإهتمام :

— لماذا تترعج يا بني ؟ هل أنت مريض والعياذ بالله ؟

رد سراج : لست مريضاً ، أنا على مايرام ، السلام عليكم .

ترى كيف سيرد عليه ولو كان مريضاً ؟ لقد سأله الطفل نفس
السؤال ، هل يبدو عليه هذا؟ سار للحظة ، ثم إستدار يمينا .

ودخل حارة ضيقة من الطوب اللبن ، وعلى بعد أمتار ، توقف أمام
الصور الحديدي لمزله ، انها فيللا صغيرة ، تبدو بسيطة ، مكونة من دور
أرضي ، وطابق علوي ، وحديقة صغيرة تفصلها عن الحارة حيث تتكاثر
الأوساخ ، توقف سراج وقد أولى ظهره للفيللا ، انه لا يجرؤ أن يرجع الى
بيته فهو يتحين اللحظة التي لا يعود فيها الى أسرته ، فقد عادت الشمس
للظهور من بين السحب ، انها تبعث دفعتها منذ وقت طويل ، أحس
سراج بالدفيء ، ونسى متاعبه وغرق في حلم طويل .

وقفت هدى أمام حوض المطبخ وراحت تغسل الاطباق ، وهي تقضم لسانها بين أسنانها ، أسندت كوعها فوق طرف الحوض ، وبحركات محددة تمكنت من الإنتهاء من أعمال المنزل بمهارة ، تدخل الآن أشعة الشمس العريضة من النافذة وتفرش الأرضية ببقعة مضيئة فالمطبخ هو المكان الوحيد النظيف في المنزل ، انه عالمها ، ولا يستطيع أحد أن يدخله ، فيمكن لهدى أن تنظفه في أوقات فراغها دون أن تحدث الإزعاجات المألوفة ، أما في الغرف الأخرى فإن أعمال البيت تتم عن طريق المصادفة حيث تتطلب الكثير من الصبر والسلوان ، فهم دائماً نيام ولا يحبون أن يرونها تحوم حولهم ، لذا فهدى تستخدم كافة أنواع الحيل كي يسود هذا النوع من الهدوء في كل أنحاء البيت .

ورغم الضجة الصاخبة لوابور الجاز، فإنها سمعت صوت رفيق الحاد، قادم من صالة الطعام القرية معلنا عن نفاذ صبره في صحبة العم مصطفى، توقفت هدى لحظة ، وراحت تنصت، فهي تخشى أن يكون ذلك بسببها، أنها نفس الحكاية دائماً، فهي تتأخر دوماً في إعداد الغذاء، في الحقيقة فهي ليست غلظتها، حيث أن عادت المنزل تمنعها أن تأتي مبكراً الى الدار .

وخاصة أن جلال يمنعها من ذلك ، فمجرد وجود شخص واحد مستيقظ في المتزل يمنعه من النوم ، لذا فهو لا يريد أن يراها أبداً ، انه ينتبه عند أقل تغيير في الجو إذا مر أحد قريباً منه .

فحساسيته شديدة ، ويبدو أشبه بالهوائي الذي ينذره أقل نفس بين هذه الاسرة الغريبة ، ولكنه يظهر عنيداً فيما يتعلق بموضوع النوم ، فإن ردود أفعاله تظل دوماً بلا حدود ، لاهثة في الفراغ ، حتى الدعايات التي يسمح لها بإطلاقها فهي تتسم بأنها غير عدوانية ، جبانة ، وذات وتيرة واحدة مرعبة ، في هذا الشأن ، فإن هد لا ترعجه كثيراً ، فهي تتمكن دائماً من الهرب من قبلاته المقتضبة دون أقل قدر من الخسارة .

سارت على أطراف قدميها ، أغلقت الحنفية ثم فتحتها ، ثم دفعت تيار الماء نحو الاطباق المعطاة برغاوي الصابون ، ومالبثت أن بدت نظيفة وناعمة ، نظرت إليها هدى بإعجاب ، إلتابتها مشاعر طفولية وهي ترى يديها تخرج أشياء رائعة ، إنها إحدى المرات النادرة التي تحس بها في هذه الحياة البائسة ، ولكن فجأة أكفهر وجهها ، فقد تذكرت أنها لم تر سراج هذا الصباح ، فقد بحثت عنه دون جدوى في حجراته ، وتساءلت أين يمكنه أن يكون ، لقد خرج بالتأكيد في ساعة مبكرة ، ولكن عم يبحث في الخارج ؟ انه الوحيد الذي يتصرف على هذا المنوال من بين أحياء هذا المتزل الذي يسيطر عليهم النوم ، فهدى ترى أنه ليس مثل الآخرين ، ولذا فهي تخاف عليه من كافة أنواع المخاطر ، إنها لا تعرف أبداً ما يمكن أن يحدث لغلام مثله يعرض نفسه لكل أخطار الشارع ، بين الناس ،

والأشياء المشؤومة ، تخيلته مدهوساً تحت سيارة ، أو نائماً في أعماق حقل، دون أن يدافع عن نفسه من وخزات العقارب ، ظلت قلقه للحظة تفكر وهي تضع لسانها بين أسنانها وتغسل آخر طبق بين يديها المنسابتين.

وانتهت الى نفسها وفكرت بقلق في الغداء المتأخر ، وكى تستكمل متاعبها من هذا العدس الذي لم ينضج بعد ،تركت هدى الحوض، ورفعت غطاء الآنية الذي بأعلى الموقد ، وتذوقت بطرف لسانها وبكل ريبة، العدس الذي يطلق بخاره ، لقد إستوى ولكن ينقصه الملح ، أمسكت بوعاء وخفقت فيه حفنة من الملح ، ثم رمتها في الآنية التي غطتها .

الآن عليها أ، تجد سراجا كى تخبره أن الغداء جاهز ، ثم راحت لتوقظ جلال النائم كعادته ، ويدس رأسه تحت اللحاف ،فالعجوز حافظ يأكل وحده في الغرفة التي تقع بالطابق العلوي ، وهو شخص لا يتزعج أبدا ويعيش على المعاش في عالمه المجرد ، خطر لهدى أن تصعد له في غرفته باعتبارها مسئولة عن كل شيء ، ومشغولة بهم ، وكأنهم أطفال مرضى .

جففت الأطباق ورتبتها فوق بعضها وأمسكتها كى تتوجه الى صالة الطعام ، في هذه اللحظة ، أدارت رأسها نحو النافذة ، ورأت سرجا واقفا في الحارة ، موليا ظهره نحو المنزل ، خفق قلبها في صدرها ، ودت لو نادته لكنها ظلت غير قادرة على النطق بكلمة مذهولة بسلوك الغلام المهم ، وقف سراج يمينا ، وقد وضع يديه في جيوبه ودفع رأسه الى الخلف ، ورفع وجهه نحو أشعة الشمس بدأ كأنه يتأمل شيئا ذا أهمية

قصوى في السماء لم تستطع هدى أن ترى وجهه وقد إختفى اكثر ، ماذا يمكنه أن يتأمل وهو ساكن هكذا كالتمثال ؟ وضعت هدى صف الأطباق فوق المائدة ، واقتربت بهدوء من النافذة .

لا يزال سراج يشعر بمتعة ، أحس بنفسه ضائعا تماما داخل تأمله ، رفعت هدى رأسها ، ونظرت إلى المتزل المقابل ، ثم نحو السماء ، حيث تتحرك سحب خفيفة تنسل في مهربها ، لا يوجد شيء غريب يمكن أن يشد إنتباهه ، بلا شك فإن سراج لا ينتظر إلى أمر محدد ، ربما أن عينيه مغلقان ، يا له من غلام غريب ، يمكن أن يبقى هكذا للأبد ، إنتظرت هدى طويلاً آملة أن تراه يتحرك ، ثم قررت أن تفتح النافذة .

- سراج .. هيا إلى الغداء ،

مرت بضع ثوان قبل أن يدير الغلام رأسه ، كشف عن تكشيرة غضب ، عندما رأى هدى ثم إبتسم في حزن ، فتحت له هدى باب الحديقة الحديدي ، وجرت لتمسك صف الأطباق ، وتوجهت نحو صالة الطعام ، سأل رفيق:

- يا بنت الكلب !! هل الغداء جاهز ؟

ردت هدى : انه جاهز ، يمكنك أن تجلس أمام النافذة

- بسرعة ، يا بنت المومس .

تقع صالة الطعام في الدور الأرضي، انما غرفة كبيرة مبلطة ببلاط أبيض وأسود مفروشة بأثاث قديم مسوس، وما عدا المائدة ، والمقاعد من حوها، لا يوجد سوى بوفيه عتيق وأريكة مغطاة بأكياس الملاءات البيضاء الضاربة في الإصفرار ، في قدارة منفرة هناك حصيرة قديمة محددة الأبعاد، تغطي جزءا من البلاط أسفل المائدة، أما الجدران فعارية ومنداه، مثل كل غرف المنزل تفوح من صالة الطعام رائحة كريهة ، لأنها مقفولة، تبدو كأنها قبو أو نفق ، وعلى أحد الجدران تنصدر ، في إطار ذهبي، صورة ضخمة للعجوز حافظ ، تعلوها الألوان والاثربة وقد غطت مخلفات الذباب زجاج الإطار تماما، ويبدو العجوز حافظ بداخلها أشبه بجثة مرعبة في صورته المرسومة، العجوز حافظ الذي لا يغادر أبدا غرفته، يجد أن أنسب وسيلة هو حضور الوجبات مع أبنائه ، ولكن أحدا لم ينتبه إليه، فهو مصاب بالأنيميا في إطاره الذهبي البالغ القدم والذي يكشف كافة التناقضات .

كان رفيق ممدا فوق الأريكة، يرتدي بيجامة مخططة، وقدماه في قبقاب، لقد أدار لتوه مع العم مصطفى حديثاً بالغ الاثارة، كان أثناء مدار للسخرية، انه مسترخ الآن، يتكتم رغبة لئيمة أن يرى الحسرة تلاحق عمه، هذا الذي يجلس أمام المائدة يشغل مكانه في صمت ويقرقرش قطعة من الخبز منتظرا الغذاء ، ويلتزم هدوءا رصينا ، رغم انه يهتز بعنف من الداخل، لقد جرحته سخرية رفيق طويلا في كرامته ، وحاول أن يكون صافيا حتى لا يجرحه أحد.

وضعت هدى الأطباق فوق المائدة ، واستعدت للعودة الى المطبخ ،
للحظة راح رفيق برمقتها بنظرة عدوانية ، وما أن اقتربت منه حتى داس
على طرف فستانها ، وسألها بصوت خفيض :

- أخبرني ، هل رأيتها ؟

ردت هدى : نعم ، رأيتها .

ولم بريق أمل في عيني رفيق ، وأصبح صوته عميقا ، جياشا :

- وماذا قالت ؟

قالت أنها لا تريد أن تراك

- بنت الكلب ، هذا ليس صحيح

حاولت هدى ان تتخلص منه ، ولكن رفيق داس أكثر على فستانها ،
انها تخشاه أكثر من الآخرين ، بسبب هذا البريق الشهواني الذي يلمع
دائما في عينيه ، بدا كأن صرعا أصابه ، دافعت عن نفسها :

- إنه ليست غلطتي ، فلا أستطيع أن أفعل لها شيئا ، لقد أخبرتني أنها
لا تريد أن تراك .

قال رفيق : مستحيل ، مستحيل أن تنساني .

قالت هدى: لن تنساك ، فقط لا تريد أن تراك

- مومس ، وأنت أيضاً مومس

توسلت هدى : دعني .

ترك رفيق الفستان ، واستعاد مكانه على الإريكة ، وعادت هدى الى المطبخ.

وأثناء هذا اللقاء الهامس ، راح العم مصطفى يتشاءب ، وقد ركز بصره عند نقطة غير مرئية من الغرفة ، لقد قادته مرارة أفكاره رغما عنه الى عالم غيبي وهو مرتديا ملابس نومه وستره من القماش الكستنائي ، وقد علق طربوشه على رأسه خشية البرد ، هذا المظهر يعطي للعم مصطفى إحساسا بأن هناك زائرا في دار ، فهو لا يتوقف عن إستعراض كرامته مما يتعبه كثيرا ، انه يحفظ كرامته بين الأطفال النيام عديمي التربية لكن كل هذا تماوى تماما ، لقد فعل العم مصطفى الكثير من أجل إنقاذ - في الوضع الحالي - ما تبقى من هذا الإحترام المقدس الذي كان ركنا أساسيا من وجوده القديم ، ومن وقت لآخر يطلق تنهيدة دهشة ، تبدو كأنها صرخات عذاب تخرج من الاعماق.

قال رفيق فجأة : ها هو عاملنا الكبير .

وما لبث سراج أن دلف من صالة الطعام ، كان قد خلع حذائه في غرفته ، وراح يمشي الآن في خفة ، يخطي مرتبة ، وقد بدا عليه التعب ، كأنه لم ينم منذ أيام عديدة ، راح يأخذ مكانه أمام المائدة متباطئا ، فهذه الترهة النهارية قد أنهكت قوه وهو الآن سعيد أن يجد نفسه بين أسرته ، ففي كل مرة يعدو من تجواله عبر الحقل ، يحس أنه أفلت من مصير محتوم

، ثم يستعيد رغبته في الصعلكة ، ويبدأ في مقت هذا الجو الغامض والنوم
الذي يخنقه ، في هذه اللحظة ابتسم في سعادة ، وقال :

– صباح الخير يا عمي .

– صباح الخير يا بني .

قال رفيق : حسنا ، أي أخبار طيبة جلبتها لنا من الخارج ؟

رد سراج : لم أر شيئا مهما نفقط تنظّعت في القرية .

– بشرفي ، أ،ت تبدو مراهقا، وأين تصرّحت أيضا؟

قال سراج : هذا لا يخصك ، أنا حر أن أذهب الى حيث أشاء .

ضحك رفيق ساخرا : تتزّه ، ها أنت تتزّه الآن ، أعتقد أنك كنت

تبحث عن عمل ؟

معذرة ، فأنا أراك خائبا هذه المرة أيضا ،

قال سراج : أخذلك ربنا .

قال العم مصطفى : دع الغلام في حاله .

ردد رفيق : يا عم مصطفى ، أنت الذي عشت طويلا في المدينة ، قل

لنا من فضلك ، كيف ينصرف الذين يعملون ؟

قال العم : لا أعرف عم تتكلم ، ماذا تعني بكلماتك هذه ؟

ألم رفيق : انه سؤال يتعلق فقط بسراج ، يجب أن يوفق هذا الغلام ،
فأنا أنتظر بصبر نافذ اليوم الذي سيأتي فيه للبيت بالنقود ، لأنني يا
عزيزي سراج ، أتمنى أن أرى قدراتك أن تكسب الكثير من المال .

إعتاد سراج على هذه السخرية المقرزة ، ولذا لم يرد ، فالعم مصطفى
يترك نفسه دوما فريسة لمزاج ابن اخيه المنحرف ، أما هو فلا ينغمس في
ذلك تماما ، رغم أنه يعيش منذ ثلاثة أعوام في صحبتهم وقد وصلت
حالته ، الآن الى ما فيه الكفاية من السخرية ، فرفيق يجده هدفا نموذجيا
للاغظة وكأن هذا بالنسبة له نتيجة شر فطري ، انه ببساطة في حاجة
الى محول كي يهدئ أعصابه الشديدة الهياج ، فسخریات رفيق تختفي
مرارة شديدة ، وفي أعماقه الشخص الوحيد الصافي في أسرته ، لقد
إختار عالمه الهادئ ، الذي يكشف ضعف الجميع ، بعقله أكثر مما هو
طبيعته التي إكتسبها ، إنه غير قادر على مواجهة كل ما يفترقه ، مثل هذا
المصير الذي يتعاضم دما ، حيث يؤرقه أن الآخرين لا يأخذون سعادتهم
في الحسبان ، ومن هنا يأتي إحتقاره وسخرياته .

ومنذ حديثه مع رفيق كشف وجهه عن عوائق حيوية تبدو مسيطرة
عليه ، فقد تفجر وجهه بكل كلماته ، فقام من فوق الأريكة وجلس
مكانه أمام العم مصطفى .

عادت هدى من المطبخ حاملة آنية العدس ووضعتها فوق المائدة ،
قالت :

- أغرقوا لأنفسكم ، سأذهب لأوقف جلال .

قال العم مصطفى : هل غرقت للبيه ؟

هتف رفيق : البيه ! يا للسخرية ! منذ متى يا عم مصطفى ، وأبي بيه ؟

فكر العم مصطفى قبل أن يرد ، أراد أن يجد صيغة جوهريّة تسمح له أن ينقذ كرامته فقال :

- أبوك بيه ، وأنا أيضا بيه ، ومن قلة الأدب ألا تناديني هكذا ، خاصة أنت يا رفيق ، أنت تنسى انني كنت رجلا غنيا .

قال رفيق : لم أنس شيئا ، يا عم مصطفى ، فأنت رجل مهم ، كان يجب أن تكون وزيرا أحس العم مصطفى بالخوار فكظم غيظه .. وبدأ في غرف العدس ، ثم قال بطريقته :

- لست سوى غلام قليل الأدب ، لذا لن أكلمك بعد الآن .

- يا للأسى ، لن تكلمني ، كيف أستطيع أن أطيق ؟ أجبن يا عم مصطفى حدثني فعلا أنك لست غاضبا مني ؟

وكسا رفيق نفسه بمظهر الحزين ، وهو ينظر في توسل الى عمه ، ولكن العم مصطفى لم يترك له فرصة للتفكير ، فاحتفظ بصمته ، وراح يأكل بكل هدوء وهو شارد بينما غرف سراج طعامه ثم أكل بكل شهية ، فزياراته الى المصنع الذي تحت التأسيس قد حفزت معدته ، وتلاشت متاعبه التي أحس بها خارج الدار ، لقد جرب هذا الأمن السهل الذي

يخلو من كوارث ، وقد خلقت مناقشات رفيق مع العم مصطفى من حوله جواً من المجاملة وحرارة عالية ، ساد الصمت الغرفة ، ولم يتلکم أحد ، ففي وسط المائدة إنطلق البخار من آنية العدس صاعدا نحو السقف مكونا سحبا بيضاء ، بينما أخفى العجوز حافظ في صورته المكتئبة شيئاً فشيئاً وراء القذارة التي تعلقو زجاج الصورة ، ولم يعد أحد يراه .

– لماذا إستيقظتم ؟

كان جلال الذي أطلق هذا السؤال قد وقف عند سدة الباب ، وقد بدا كأنه خائف أن يوقظه أحد ، فلا تزال عيناه نصفاً مغلقتين ، تنأب وهو يعض فكه ، بينما سقط شعره الأشعث فوق جبينه ، على وجه شاحب كأنه لجثة آدمية ترتدي جلباباً واسعاً مستخاً ومليئة ببقع العرق .

يلتصق بجسده ، انه شخص لم يتغير شكله منذ عدة أشهر ، استند على الحائط ، وبقي أن يتحرك دعك عينيه المرهقتين من النوم ، وكأنه يريد أن يعود الى حالته الدائمة قال رفيق :

– يا عزيزي جلال ، بشرفي نحن نستيقظ كي نأكل ، فلا تتصور شيئاً آخر .

قال جلال منتهداً : أعتقد أن حريقاً قد إندلع .

وتقدم مترنحاً ، واتخذ معقداً خالياً حول المائدة وانتظر لحظة كي يستعيد وعيه ، وتحقق بصعوبة من حالته ، بدا بالغ الأسى وهو يتحرك

وكأنه مضطر للتحرك ، كانت اساليبه الحائفة وحركاته الالية تبدو بشعة
في كل يوم جديد ، راح يغرف ، مسندا طبقه قبل أن يضعه أمامه ،
وتماسك من جديد ، أحس أنه لا يزال نائما في عالم خاص ، وإنه يجب أن
يبقى هكذا أ طول مدة ممكنة ، لكنه ما لبث بدأ ان يأكل ، سأل :

– أخبرني ، هل العدس لذيذ ؟

رد رفيق : انه بشع ، ماذا تنتظر من طبخ الفتاة ؟

قال جلال : هذه ليست غيشة ، فهناك ما يزعجنا من هذه الغباءات
طيلة النهار .

قال رفيق : لديك الكثير مما يزعجك ، يمكنك بسهولة أن تأكل ،
حاول ، ستري أن الأمر ليس مرعبا .

قال جلال : سأحاول ، عندما ستموتون .

صاح العم مصطفى : يا للعار ، هل تهين أباك هكذا ؟

رد جلال قلقا : من يهين أبي؟

– لقد قلست لتوك .. عندما ستموتون ، أنت يا جلال أكبر أخوتك
نصير قدوة سيئة لآخوتك .

راح جلال يأكل غير عابئ ، بتعليقات عمه ، وكأن ما يحدث من
حوله نوع من الوهم ، مؤامرة مدبرة ضد سلطان النوم الكبير ، فهو

يعيش وسط أسرته مغلق تماماً في محبسه ، انه مبتدئ لا يعرف شيئاً عن ملذات هذا العدم الذي له طعم المخدرات ، فجلال يكبرهم بسنوات أما الشخص الأكثر إنفراجاً فهو العم مصطفى ، انه لم يسكن المنزل إلا منذ ثلاث سنوات فقط .

ماذا يمكنه أن يفهم ، فعندما كان يعيش وحده في المدينة كان يحب قضاء وقته في رؤية الناس يخرج كل مساء ، ويتسلى بصحبة النساء العابرات ، أشياء تحدث بشكل منتظم ، في البداية كان يثرثر مع جلال ، لكن من يتصوره؟ فقد كان جلال ينام ولا يرد عليه ، وسرعان ما فهم العم مصطفى ، لذا فإنه الآن لا يزعج جلال بأي أمر جسيم .

عادت هدى من المطبخ ، وجلست على المائدة قريبة من سراج ، فهي تأكل مع الأسرة ، إنها ابنة واحدة من أقارب بعيدين للعجوز حافظ ، أرملة مسكينة ليس لها أحد سوى نفسها .

في الدنيا ، جاء بها العجوز حافظ لخدمته في فترات محدودة ، تأتي كل يوم للعمل في الدار فتهتم بالمطبخ ، ثم تعود في المساء الى أمها التي تسكن في الضواحي وأعتبرت كفرد من الأسرة وليست كخادمة .

سأل العم مصطفى : هل صعدت بالغذاء الى البية ؟

قالت هدى : نعم ، إنتهيت من ذلك لتوى .

قال رفيق : يا عم مصطفى ، إذا ظللت تعامل أبي كبيه ، فسوف أغضب وأسبب كارثة .

– لماذا إذن يا بني؟

– لأنني لا أحب الإمتيازات .

قال العم مصطفى : يا للإهانة ، ثم أنا لا أكلمك .

رد رفيق :ثم من ناحية ، فان البيه محل النقاش يستعد للزواج مرة ثانية ، بشرفي سيكون عرسا جميلا .

قال العم : إسكت ، هذا الأمر لا يهملك ، يا الله ، هل رأى أحد مثل هذا الصبح الوقح ؟

– ولهذا السبب ، فإنك منذ وقت طويل تسميه بيه ، تريد أن تعلي مكانته ، يجب أن يعرف والد الفتاة أنه بيه ..ويمكنك أن تسميه باشا ، وماذا يمنعك ؟

سأل جلال في قلق شديد : لماذا تثير الكثير من الجلبة ؟

قال رفيق : عزيزي ، في اليوم الذي سيتزوج فيه ابوك لن يكون أمامك دقيقة واحدة للنوم وأحب أن أخبرك بذلك .
صاح : سوف يتزوج أي ، يا خبر أسود ، كيف هذا ؟ انه هناك في غرفته لا يخرج منها أبداً .

– انه ليس في حاجة للخروج ، فالحاجة زهرة ، ابنه العاهرة هي التي دبرت كل هذا .

فمنذ وقت طويل ، لا تكف عن زيارته .

قال جلال وهو في قمة المفاجأة : لا تتركها تصعد ، اقتلها هنا ، يا أخي رفيق ليس لدي وقت لأنشغل بهذا العمل ، ولكنني واثق فيك ، أستحلفك أن تبعد عنا هذه المأساة ، امرأة في المتزل ، يا خبر أسود ! .

قال رفيق : لا تفعل ، أنا هنا .

ثم وجه كلامه الى هدى : وأنت ، يابنت الكلب ، إذا تركتها تدخل هنا ، سوف أخنقك .

قال العم : أنت تتجاوز حدودك يا رفيق ، وأنا أكرر عليك ، هذا الامر لا يعينك .

أكمل رفيق : هل تعرف أن هذه الست الطيبة ، الحاجة زهرة ، تنتمي إلى أسرة نبيلة .

إنها تردد في كل مكان أن أبانا مريض بالسكر .

قال سراج : بالسكر ، لماذا ؟

سأل جلال محذرا لهذا الخبر البائس : نعم لماذا ؟

قال رفيق : سوف أشرح لك ، أنت بالغ السذاجة كي تفهم ، فحسب فهم هذا الجاهل يبدو أن رجلا مريضا بالسكر ، هو رجل أكل الكثير من الحلوى في حياته ، ورجل أكل الكثير من الحلوى في حياته

ليس لديه ما يهمه ، مما يعني أنه رجل من طبقة إجتماعية راقية ، هل
فهمتم الآن ؟ .

إنفجر جلال في ضحك رتيب ، ثم توقف فجأة ، لم يتصور أن هذه
قصة ضاحكة ولكنها قصة قدرية ، قال سراج :
- ولكن هذه المرأة مجنونة .

قال رفيق : هي ليست مجنونة ، إنها تجيد بكل مهارة ، مهمتنا
كخاطبة ، أخبرني من هو الأب الذي لن يكون فخوراً أن يزوج ابنته
لرجل مريض بمثل هذا المرض ؟ هذا يؤكد على الأقل أنه لا يأكل الخبز
والجن القريش .

قال جلال : مرة ثانية يا عزيزي رفيق ، أبعد عنا هذه المأساة اعتمد
عليك ، وأعينك حارساً لنومنا ، إكتشف لنا قدراتك فأنت دارس ،
وكدت تصوير مهندسا .

- لست في حاجة أن أكون مهندسا كي أمزق الحاجة زهرة ألف
قطعة ، اعتمد عليّ .

قال جلال مؤكداً : أنت شجاع .

قال العم مصطفى : يا أولادي ، لا تتدخلوا في هذا الموضوع ،
فأبوكم هو رب المنزل وإذا قرر شيئاً فالأمر يخصه .

قال جلال : يا عم مصطفى مستحيل ، أنت تريد أن تقتلنا ، امرأة في البيت ، وكأن هذه الفتاة لا تكفي .

وأثناء هذا النقاش ، احتفظت هدى بصمت حذر ، فمشروع زواج العجوز حافظ سوف يولد جدلا لا ينتهي لا ينقصها أن تحتل ظروفه ، إنها تتخوف من الأيام القادمة ، قامت في صمت وجمعت الأطباق القذرة وحملتها الى المطبخ .

سكت العم مصطفى لكنه لم يستغرق في التفكير ، فهو لا يمكنه أن يرضى احتراماً بوسائله الخاصة ، فقد أخذ مبادرة الدفاع عن قرارات أخيه ، فغياب العجوز حافظ الدائم يخول له السلطة ، وللأسف فإنه يستخدمها بشكل سيئ مما جعله مصدر سخرية دائمة لأبناء أخيه .

فالعم مصطفى يعاني من قناعة في لبس دوره كنائب لأخيه ، وفي الحقيقة فإنه يجب هذا المنزل الهادئ ، والذي تعود عليه دوما ، فهو ينام الآن أطول من الآخرين ، وأحيانا يتذكر حياته القديمة كعازب ثرى وينتابه الندم ، وتسيطر عليه المرارة ، أطلق بعض التهنيدات بعمق شديد ، ونظر حوله في كآبة ، تعطي تنهيدة العم مصطفى دائما الإحساس بقدرية غاشمة ومروعة ، تكفهر الوجوه فيما وراء حدود السأم ، قال رفيق :

- يا عم مصطفى ، يجب أن تعمل في الراديو ، فتتهادتك ستكون مشهورة ، أحب تنهداتك ، مثلما يثير العالم السأم فيك .

- لا أفهم سلوكك ، ماذا تقصد ؟

قال رفيق : ببساطة أعتقد أنه خسارة أن تضيع مثل هذه التهنيدات الجميلة على أمر غريب أنا متأكد أن الراديو سوف يدفع لك جيداً .

رد العم مصطفى على هذه الدعابة بأن أطلق أيضاً واحدة من تنهدياته المميزة ثم سكت .

قال جلال :

– عندك حق أن تتعهد يا عم مصطفى فالأمر مرعب أن تنتظر هكذا ، أين ذهبت هذه الفتاة إذن ؟

سأل رفيق : ماذا تنتظر أيضاً ؟

– أنتظر التحلية ، وليس لدي وقت .

– أنت متعجل جداً .

وبعد دقيقة عادت هدى حاملة طبقه مليئاً بالبرتقال ووضعتة فوق المائدة ، قال جلال :

– سأخذ برتقالتي وسأكلها في سريرى ، فلأخذ أثنتين ، برتقالة العشاء أيضاً ، لا أعتقد أنني قادر على حضور العشاء معكم هذ المساء ، فليس لدي من الوقت لأضيعة في صالة الطعام هذه .

قام وتوجه نحو الباب ، إستدار فجأة .

- لست في حاجة لان أقول لكن ألا تثيروا جلبة ، أخلدوا إلى النوم ،
ما الذي ييقظكم متيقظين ؟ بشرفي ، أنتم جميعا مخطئين سلام عليكم .
قال رفيق : وداعا ، ولا تنس أن تكتب لنا ، فنحن في أشد القلق
لسماع أخبارك .

عندما تحين ساعة القيلولة المقدسة، يسود البيت سكون ، يبدو كأنه يغوص في أعماق الصمت، تسمع أحياناً أصوات مكتومة لأطباق غير مرئية، تغطي في جو السكون، تبدو كصيحة ضائعة عبر النوم الثقيل ، تمدد رفيق فوق سريره، فهو لم يتم، العينان مفتوحتان في الظلام، انه متيقظ بحساسية مفرطة، أهلك نفسه في نضال شديد ضد الخمول، في انتظار الحاجة زهرة، الخاطبة التي تخاطر بدسائسها في أن تقلب حال المنزل، قرر ألا يتم زواج أبيه، لذا، فعليه ألا ينام لبضعة أيام، أنه امر بشع مجنون ، يمكن لرفيق أن يسبب التعب لأبيه.

ولعله لن يبلغ نهاية مهمته، يلمع العرق على جبينه ، يناضل الملل المؤذي الذي يصيب أعضائه بالوسوسة التي تسرى فيه ببطء الكسل ، هنا بدأت المعانات تنغص عليه ، فاستند على مرفقيه ، وتنهى بعمق ، وسمع أنفاسه العميقة، وراح يحذر نفسه : لقد فشل في إيقاظ جلال الذي يرقد فوق السرير المجاور، أدار وجه نحو الحائط ؟ إندفن تماماً تحت اللحاف ، فلا تذكره مشقة تلك الأنفاس اللاهثة لنومه الأشبه بالموت ، فرفيق يعجب بهذا الغناء الصداح الذي لا يسبب له أي قلق ، إنها حالة من السبات الدائم والنوم المستمر ، ليس لدى جلال الخيار ، فنومه ليس رغبة في

الهروب من عالم لا يعجبه ، بل أن يتجاهل كل ما هو موجود بعيدا عن إنسانية مليئة بالمعاناة يهددها الجشع ، لذا يستسلم للنوم بشكل طبيعي بلا أي مبالاة كأن الشخير أمر عادي مبهج .

أما رفيق فعلى العكس فهو صاحب رؤية عالم متواضع مسكين ، لقد اختار النوم كمأوى ، وهو لا يحس بالراحة إلا خلف هذه الجدران المخاطة بالمتاريس ضد الكائنات والأشياء المنحومة التي تحوك المتزل ، حيث تعلو كومة من ركام الوجوه الإنسانية ، تبدو له بالغة البشاعة .

تذكر بشكل مشوش الزمن الذي كان يخرج فيه ، واتصالاته القائمة على المصادفة مع البشر ، انهم جميعا قتلة ، وقد احتفظ لنفسه بكرهية لاحد لها ، فعندما كان أصغر سنا ، فهم قيمة الوجود الذي يسير على وتيرة واحدة إلى الابد ، التي يقدمها له منزل الأهل ، هذا الأمن الذي يتخلص من كل موجود ، يرجع الفضل فيه الى العجوز حافظ ، الذي يصنع حوله جوا من الفراغ الأبدي ، ولذا فرفيق يحترم أباه من أجل هذا النظام الرائع ، الذي يوفر له الكسل والخمول ، وهو مدان للفكرة الوحيدة التي طلع بها من الدنيا ، وعندما يضطر في أي وقت أن يضحي بحبه من أجل امرأة ، وان يخضع لرغبة أبيه ، فإن رفيق لا يتردد ، رغم المعاناة التي تكلفه مثل هذه التضحية ، فالعجوز حافظ على حق ، ورفيق يأخذ ذلك في الحسبان ويبادر في تنفيذه في الوقت المناسب ، لكن الآن ، فالعجوز حافظ يحاول أن يحصل على هذا الأمن ، وتلك الخبرة البالغة

الصعوبة عبر الأجيال لقد تمرد عليه رفيق ، ويحس أنه قد أهين وتعرض للخيانة .

هذه المرأة التي أحبها رفيق ، في الوقت الذي كان يخرج فيه كانت عاهره شابة تسكن في البيت القديم المتصدع الذي يقع على الطريق الرئيسي ، يسمونها في الحي " إمتثال ، صديقة الطلبة " لأنها لا تستقبل زبائنها إلا من بين الشباب الجامعيين ، وكل زبائنها ، البالغين لتوهم ، يهرعون الى بابها ، كان رفيق يزورها أحيانا في صحبة تلاميذ آخرين ، في البداية لم تنتبه إمتثال اليه ، فهو مجرد زبون مثل الآخرين ، ثم جاءت اللحظة التي بدأت تعامله بطريقة خاصة ، رفضت النقود التي يعطيها لها ، وأحس رفيق بتميز خاص وهو يتصور نفسه مخلوقا غريبا.

رفض النتقود التي يعطيها لها ، وأحس رفيق بتميز خاص وهو يتصور نفسه مخلوقا غريبا .

بدت إمتثال كأنها ذاقت منه متعة غريبة وهي تمارس الحب معه ، وجاء الوقت الذي أكتشف فيه رفيق لهيب الجسد ، فلم يستطع ان ينساها ، وبدأت إمتثال تحبه لدرجة الجنون ، ولم تعد تستقبل المزيد من الزبائن ، وراحت تقضى أوقاتها في انتظاره ، وأصبحت رمزا للوفاء ، وخلال بضعة أشهر من هذه العاطفة القوية ، فكر رفيق أن يقترب بأمثال وأن يأتي بها لتعيش معه في البيت .

وعندما حدث أباه بالأمر ، بدأ العجوز حافظ عنيذا ، وعارض ذلك بشدة ، ووضع ابنه في خيار إما أن يترك البيت ، أو أن يتخلى عن مشروعه الطائش ، وكان أول رد فعل لرفيق أن ترك البيت ، وعاشر إمتثال ، لكن النقود بدأت تنقصهم من أجل المعيشة ، فماذا يفعل ، عليه أن يعمل ، بدت هذه الجملة صعبة لدرجة أن رفيق لم يستطع أن ينطق بها ، فكر مليا ، أن يوازن بين عاطفته الحقيقية وتقلبات الحياة ، فالنوم والسكينة سوف يلغيان ، وفي النهاية تخلى عن حبه ولم تعد اي قوة جسدية تقارن براحته ، وأعلن لامتثال رفض أبيه ، حدثها بقراره في الانفصال عنها ، وهكذا كانت المأساة التي لم تنته .

حدثت هذه المغامرة منذ عامين تقريبا ، لكن رفيق لم ينس أبداً قوة اللحظات الشهوانية التي تشعله ذكرياتها كثيرا فلا تخمد ، راحت صورة إمتثال تؤرقه حتى في نومه ، ومنذ إنفصالهما ، لم تود أبداً أن تراه ، عادت إلى حياتها القديمة كعاهرة ، وجاء الطلاب الشباب بطريقون بابها ، وراح رفيق يكظم غيظه عن كل ما تفعله ، عله ألما ولدت طفلا سفاحا لا تعرف له أبا فقامت بتربيته في الغرفة الوحيدة التي تمارس فيها الحب .

ما يؤرق رفيق حقا ، ليس إنفصاله عن إمتثال ، ولكنه سوء التفاهم الذي حدث بينهما ، فإمتثال لم تفهم سوى شيء واحد ، أن رفيق لم يعد يحبها ، وأن ليس لديه الوقت ليجعلها تفهم الدوافع الأساسية لفراقهما ، تصورته قوادا ، لأنه أخبرها أنه لا يود أن يعمل ، ودون أن تحاول أن تسمع ، راحت تصرخ في جنون ثم طردته من منزلها تلاحق بلعناتها .

لا يزال رفيق يرغب أن يراها مرة أخرى ، حاول أن يشرح لها بالتفصيل عن جمال هذه الحياة الخاوية التي يفضلها عن حبه ، وقبل بضعة أيام ، كلف هدى أن تذهب إليها في منزلها كي تستحلفها بأن يتفقا على موعد ، ولكن هدى أخبرته قبل الغذاء ، بفشل المحاولة ، لقد رفضت إمتثال أن تستقبله ، ومنذ هذه اللحظة راح رفيق يفكر في وسيلة واحدة للاقترب من إمتثال ، ان يذهب إليها بغتة وأن يجبرها أن تسمعه ، قرر أن يخرج هذا المساء ، ولكن هل ستستقبله ؟ لقد عرف معاناة التفكير في هذا اللقاء ، وذلك لأنها أقوى منه ، أنه في حاجة أن يجرب المحاولة الاخيرة مع إمتثال ، لعله يجعلها تفهم أنه لم يكف ابداً عن حبها ، وأن هذا لايعني ممارسة الحب فهو ببساطة غير قادر أن يترك منزل أبويه ، هذا المأوى الذي يحفظه ضد كل بشاعة العالم ، وأن يخبرها أن كل البشر قتلة ، انه يخاف منهم ، ستعامله بكل تأكيد كمجنون ، لا يهم ، فبعد هذا القرار الجريء ، سيكون أكثر هدوءا ، لأنه ، منذ مأساة الحب الذي انزلق بينه وبين النوم ، فلم يعد يستطيع استعادة سكينته بسهولة ، فقد أرقه شبح إمتثال وأصابه بمرارة ، فهي ماثلة أمامه كأنها عائق .

قام رفيق من فوق السرير ، وخرج من الغرفة ، عبر الممر ، وفي المطبخ تكومت هدى الصغيرة كفأر ضئيل ، إنزلق رفيق دن أن يثير اي ضجة، ودخل غرفة الطعام ، وقد نوى ان يعترض الحاجة زهرة كي يمنعها أن ترى أباه ، وألا يتركها تمر من أمامه ، في هذا الشأن فإن غرفة الطعام مكان جيد للمراقبة ، ومن الباب الكبير المفتوح على الدهاليز ، يستطيع رفيق أن يرقب السلم الخشبي الذي يؤدي الى الدور العلوي ،

وإذا ما جاءت الحاجة زهرة فإنه يستطيع أن يراها ثم هناك الأريكة للحظة ، فالوقت لا يزال مبكرا ، غامر بالنوم للحظة ، يجب أن يثبت ذاته ، بدون كل هذا ستصير مهارته عميقة ، تنهد رفيق وتأهب لإستخدام كل الطاقة الكامنه فيه ، ثم ذهب الى النافذة ونظر عبر الزجاج نحو الحارة النائمة ، في هذه الساعة ينام الجميع في المنزل المقابل ، إنها عمارة من ثلاثة أدوار ، تم إنشائها حديثا ، لم تطل جدرانها بالحارة ، وتبدو أشبه بسجن كويه ، لم ير رفيق فيه سوى الرجال ، اما النساء فعليهن الإختباء ، أو أن يقبعن خلف الشبايك المغلقة ، هذه الأسرة البرجوازية ، ذات السلوك والعادات الوحشية ، تمنع بناقها أن يكشفن أنفسهن أمام الأغراب ، فكر رفيق في أنه يتمنى أن ينام مع إحداهن ، إنها مغامرة ، لعلهن دميمات ، تخلى عن فكرته بلا ندم ، وبعد لحظة ظهر طفل ، قادم من ناحية الطريق ، يلعب بالطوق ، انه طوق حديدي بالغ الثقل ، حركة الطفل بصعوبة فوق الأرض ثم إختفى حين دار في الحارة وهو يطلق صراخات ملعلعة.

بدأ رفيق في الاحساس المدمر بهذه الإهانة القديمة ، إرتعدت أهدابه ، وإرتخت ساقاه ، فكرة أنه مضطر أن يتنازل عن قيلولته بسبب هذه الملعونة الحاجة زهرة التي تشكل بالنسبة له أمراً لا يمكن إحتماله ، لا يمكن أن يستمر هذا الأمر ، تمدد فوق الاريقة ، ووضع يده فوق الزجاج ، وأدار رأسه ، وقاوم النوم بكل ما لديه من قوة ، وأحس أنه يسبح ضد التيار وسط فھر ملئ بالدومات الخادعة ، ومن وقت لأخر ، راح يقاوم ، ورفع رأسه ، وتنفس بعمق ، فوجد نفسه غارقا في هزة

عميقة ، فجأة إرتد الى إذنه صوت قادم من بعيد ، تصور انه يحلم ، فاهتز ، ثم راح ينصب ياهتمام ، إقتربت الهمهمات وتضخمت وأصبحت جلبة صامتة لجمع خفير يمشى ، أحس به رفيق يقترب منه ، وبعد قليل أمكنه أن يرى موكبا غريبا يتحرك أمام النافذة .

عرف الرجل الذي يحمل السلاسل الحديدية ، تتبعه مجموعة أطفال يحدثون جلبة ، يمشي أمامه راكضا ، كي يتأمله أفضل ، أما الرجل الذي يحمل السلاسل فقد بدا عملاقا ، طويل الشعر المجدل ، الذي يتدلى حتى كتفيه ، وقد أطلق لحيته التي أحاطت وجهه الاسود الغارق في العرق ، نصفه الاعلى عاريا وقد تحزم بمزرة من السلاسل التفت أيضا حول عرقوبه .

وراحت تثقل حركته مما يثير التعاطف معه ، بدا كأنه يود أن يقلت من المزرة الوهمية البعيدة .

وبقطعة ضخمة من الزلط التي أمسكها بيده اليمنى راح يطرق على صدره ناحية القلب ، كانت الضربات قوية ، وفي كل مرة يرفع ذراعيه ، فإن جموع الأطفال تصمت في قلق خاصة حين تحطمت الزلطة ، بدا الجسم وكأنه قطعة أرض طينية مليئة بالشقوق ، ومع كل ضربة كان يطلق زجرة مكتومة بكلمات غامضة تشبه الإبهال ، يلعب دوره كأنه مذنب نائب ، يمر بمأساه بديعة ، احيانا ، يلقي شخص ما من إحدى النوافذ قطعة نقود معدنية ، راح الرجل يحملها ويضعها في جيبه الجلدي المعلق على صدره .

لقد رآه رفيق عدة مرات ، خاصة عندما كان طفلا ، تتبع عروضه عبر الحارات .. لكن هل هو نفس الشخص ؟ إنهم عديدون هؤلاء الذين يقومون بهذا النوع من الاستجداء الإستعراضي ، إنهم يقدمون سحرا متنافرا ويمارسون حيلة يعاقبون بها أنفسهم كي يستندروا شفقة الناس ، أعجب رفيق ، بهذه الامور الشيطانية التي يقدمها الناس من أجل أن يعيشوا تبدو له كأنها آخر حدود كابوس كوني ، نظر الرجل المقيد بالسلاسل نحو النافذة ، ورع ذراعه ببطء وضرب بزلطة ثقيلة فوق صدره ، وخلال لحظة قصيرة ، تركزت نظرتة على رفيق الواقف خلف الزجاج ، أغلق رفيق عينيه ، وظل ساكنا ، بدت نظرة الرجل الحادة كأنها توجه نحو كسكين ، إنتظر طويلا أن تخف جلبة الجماهير ، ثم استدار .

ومرة أخرى ، ساد الصمت ، والهدوء ، وأحس رفيق أنه مريض ، أصابه الملل ، إرتبك من الخجل والقرف وبشكل غريزي توجه نحو الاريسة ، وتمدد عليها ، كان مشهد البشر بشير لديه البؤس والنفور وكأنه يمتزج بسقوطهم ، بذل ما بوسعه كي يحتمي ضد كلا الأمور المماثلة فالجدران تفصب بينه وبين هذه الإنسنة المعدومة ، فهو لا يود أن يكون مشاركا في مثل هذه الدنئات ؟ أحس بالمهانة ، وشعر بفوران دفعه أن يكون شاهدا على همجية غير محسوسة ، انها مجزرة حقيقة ، لفي كل مكان لوجد نفس الأشياء المخولة يتصرفون مثل قطع بنفس الكذبات الأبدية .

تنهد رفيق بعمق ، وإسترخى ، محالوا أن ينسى النظرة المرعبة للرجل الذي كان يحمل السلاسل ، انه شيء لا يمكن نسيانه ، كم من الوقت يلزمه كي ينسى رؤية قتلة يمتثلون أمامه ؟ انه يود انه يخفى ، تتصاعد روائح كريهة عبر فتحات مكمنة ، فكر في الخروج والذهاب الى إمتثال أنه بذلك يجرب أمرا غير منطقي ، تساءل :

- سيكون هذا هو الخروج الأخير .

وبقى ساكنا، في حالة انتظار، الأذن تنصت، ليس لديه سوى الصمت، صمت غير محسوس، مفرغ من كل جوهر ، فجأة، رن صوت في الطابق العلوي، انه العجوز حافظ الذي ينادي على هدى ، يبدو صوته مخنوقا بصمت موحش ، إهتز رفيق فرحا وجرى الى البال ، ونظر نحو الممر، ورأى هدى تهرول بسرعة على السلم حافية القدمين، صدمت الفتاة وهي تراه ثم توقفت في عدوها :

- تعالى هنا ، يابنت

تراجعت خطي هدى على درجات السلم وإقتربت منه بكل هلع ، قال رفيق :

- أعرف لماذا يناديك ، انه يريد أن يعرف إذا كانت الحاجة زهرة قد جاءت ، ستخبرينه ، أنها لم تأت ، وانها لن تحضر أبدا ، سوف أخنقك إذا تركت هذه المرأة تدخل البيت ، فأنا أنتظرها هنا .

قالت هدى : هذا لا يهمني، ماذا أفعل في هذه الحكاية ، لماذا تحشرنني فيها ؟

- أعرف أنه وعدك بنقود، وأنت تريدان أن تكون سببا لمصائبنا أيتها القدرة .

كادت هدى أن تبكي، انما تعرف مدى وقاحة رفيق ، اسلوبه الجاف، والعنيف أحفضت عينيها، وبدا عليها الحياء وإمتلئت قائلة :

- لا أريد نقودا ، لا أريد شيئا ، هل طلبت شيئا ؟ أنا أفعل ما يُطلب مني أن أفعله .

صرخ رفيق : إفعلي ما أقوله لك ؟

همست هدى : أسكت ، سوف توقظ الجميع.

وسكت رفيق، وقد حيره هذا النداء ، وسيطرة النوم ، هو الذي إعتاد الحذر واحترام نوم الآخرين ، ماذا حدث له؟ بلاشك فإن الإنهاك أفقده القدرة على التحكم في التفكير .

ولكن لديه أيضاً شيء آخر ، أحس رفيق انه يرغب في هدى ، وأن رغبته قد تولدت في اللحظة التي همست له أن يسكت ، هذا الصمت ذو الطبيعة الشهوانية ولد لديه لذة مكبوتة ، ربت على رقبة هدى ، أراد أن يسحبها نحو الأريكة ، قائلاً :

- تعال

هزت رأسها وحاولت أن تتخلص منه ، وهي تقول :

- ليس الآن ، ليس لدي وقت ، فسيدي يناديني ، سآتي فيما بعد .

لكن رفيق لم يسمعها، خنقها بقامته ، وضمها إليه برغبة مجنونة في النوم أكثر من اللذة راح قلب هدى يخفق في صمت، تعرف أنه ينتظرها، فهذا هو كل ما يقترفونه معها، فتش رفيق أسفل فستانها، وحاول أن يجعلها تلمس عضوه، راحت أصابعه تلمسها، وسرت الرعشة في جسدها ، فراحت تقاوم بقوة ، أحسبت أن رفيق يغرق وأن حركاته مائعة بلا إرادة.

بدأ رفيق يشعر بالممل من هذه المقاومة، ثم ألقت برأسها نحو الخلف، ثناءب، وقد قل توتره، وأحس بنفسه يتزلق في غابة من اللاوعي، واستطاعت هدى بحركة مفاجئة أن تهرب من عناقه وراحت تقفز قوف السلم .

- سوف أخنقك يا بنت المومس .

إنظر أسفل السلم لحظة، وسمع صيحات أبيه الذي راح يوبخ هدة التي تأخرت عليه .

ثم ساد صمت ثقيل وشره ، راح رفيق يلهث بسبب رغبته المحبطة، ولم يعد يحس بساقيه، وأدار رأسه كأن دوارا أصابه، انه ينام، لكنه شديد الغضب من نفسه كي يعود لينام فوق الاركة انه في حاجة أن يتكلم إلى أي شخص .

.. (5) ..

لم يتم سراج ، بل إستراح فقط ، وعندما دخل رفيق الغرفة ،
فتح عينيه وبوغت برؤية أخيه مستيقظا في مثل هذه
اللحظات المقدسة من القيلولة .

- لماذا أنت مستيقظ ؟ هل أصابك جنون ؟

رد رفيق : لست مجنونا ، ربما أكثر من هذا ، يبدو أنك لم
تنتبه لهذا ، فبينما أنت نائم ، كنت الوحيد المنشغل بالمأساة
التي تهددنا .

- عن أي مأساة تتكلم ؟

- يبدو أنك لم تفهم بعد ، فعلا فأنت لا تفكر سوى في التصعلك في
الشوارع طالما أن زواج أبيك يجب أن يجعلك تعفكر ، انها كارثة تعم
علينا جميعا يا أخي سراج ، سكينتنا مهددة ألا تفهم ذلك ؟

- هل تؤمن فعلاً بهذا الزواج ؟

- بالتأكيد ، وسوف ينفذه أبوك ، وليس هذا سوى تغاب علينا ،
فمنذ وقت طويل وهو لا يغايي أحدا ، لقد جاءته هذه الفكرة بغتة وأنا
واثق أنه تعمدتها .

جلس على طرف السرير ، ووضع ساقيه أسفله ، وغطى وجهه بيديه ، كانت النافذة مفتوحة المصراعين ، فأغرق ضوء النهار الغرفة ، ولأن رفيق يكره هذا الضوء البارد الذي يغلقه مثل الكفن ، فقد قال :

— كيف يمكنك أن تنام في هذا الضوء ؟

قال سراج : أنا لا أنام ، أحاول أن أعتاد على ضوء النهار ، لا أود أن أعيش في الظلام .

أطلق رفيق تنهيده دون ان يرد ، وضع وجهه بين يديه ، وكأنه يفكر ، فهو لم يزل يتذكر محاولته مع هدى ، تملكته رغبة نائرة ، نظر اليه سراج بتعاطف ملحوظ وأحس أنه يناضل ضد النوم وانه جاد في معرفة ردود فعله ، هل سيحاول ثانية ؟ لم يسبق له أن رأى أخاه يبذل مجهودا مثل هذا كي يهرب من سطوة النوم المسمومة الأشبة بمعجزة ، معجزة رجل معلق فوق هاوية ومثبت في الجو برغبته الوحيدة .

— ماذا ستفعل ؟

كشف رفيق وجهه ، وأغلق عينيه ، وقال بلهجة ساخرة :

— إذا إستيقظت في هذه الساعة ، يا عزيزي سراج ، فليس عن رغبة مني ، صدقني ، فأنا لذي خطة مفادها ألا أترك الحاجة زهرة تدخل المتزل ، وهكذا لن يتمكن أبوك من الزواج قط .

الأمر بالغ السهولة ، ومثلما تراني ، سأنتظر الحاجة زهرة كي أطردها الى الخارج .

– إذن ستقضي وقتك في إنتظارها .

– أجل ، سأنتظرها لأطول وقت ممكن .

– لكن هذا يمكن أن يستمر شهورا .

– حسنا، سأنتظرها شهورا أو ربما سنينا لو أستوجب الأمر .

قال سراج : أنت بطل ، لا أعتقد أنك قادر على مثل هذه التضحية .

قال رفيق : هذه التضحية سوف تنقذ حياتنا ، أنت لا تتخيل الأمر ، وجود امرأة بيننا .

فخلال بضعة أيام سنتحول إلى عبيد .

وسكتا، لم يتوقف سراج عن التفكير في سلوك أخيه ، وأن رفيق ترك نوم القيلولة بسبب قصة هذا الزواج ، وكأنه شيء أخرق ، شيء ما يجب أن يدفعه ثمنا لهذه القسوة المتناهية ربما للكراهية التي يكنها لأبيه ، قال :

– وأنت أيضا ، كنت ستأتي بامرأة ذات يوم الى المنزل ، هل نسيت ؟

لقد أخبرت أباك عن حكايتك مع إمتثال .
قفز رفيق ، بدا كأنه يخرج شيئا فشيئا من هموله ، وإستدار نحو سراج رمقه بنظرة سفيحة ، وقال :

- ليس صحيحا ، لم أكن أودها ، أنت لا تعرف كل الإحترام الذي أكنه له ، أنا معجب بأسلوب الحياة الذي يعيشه ويحوطننا به ، انه لم يود قط أن يدخل في عمل ، ولم يحاول أن ينمي ثروته ، وخاصة أنه يحتقر الآخرين دائما ، كل أفراد أسرتنا أمامه أقرب إلى الخدم ، طالما أنه أكثرهم ثراء ، ونحن مدانون لهذا القلق وهذا الفراغ العجيب ، الآن ، يريد أن يطلب كل شيء ، ولن أسمح له بهذا .

قال سراج : أنا لا أرى أن هذا الزواج سيقرب حياتنا .

- كيف لا تفهم ؟ هذه المرأة يمكن أن تقدمه ، امرأة هذا يعني فساتين، ومجوهرات ، و ماذا أيضاً ؟ ألها يمكن ذات يوم أن تعتقد أن الشياطين يركبونها وتريد أن تقيم لهم زاراً ، ولك أن ترانا نياما وسط كل هذه الرقصات الهيستيرية .

راح سراج يضحك ، فقد جعلت فكرة رفيق وجهه يحمر ، كأنها نكتة بديعة، قال رفيق في جمود :

- لا تضحك ، فالأمر جاد ، فأبوك يمكنه أن يضع آخر ملهم في هذه المغامرة ، وسنكون مضطرين للعمل .

قال سراج : حسنا ؟ أنا لا أطلب أفضل من هذا .

- يا غبي ، سوف تندم على هذا الكلام .

- أوكد لك يا رفيق أنني أريد أن أعمل .

- تريد أن تعمل ، أتساءل كيف إنتابتك هذه الفكرة ، على كل حال أنت أكيد لست من العائلة .

قال سراج في يأس : أريد أن أعمل ، وأترك هذا المنزل .

- بشرفي ، أنت جاحد ، لو لم تكن أخي لتركنتك تجرب هذا الجنون ، لكنني أشفق عليك ، على فكرة ، ماذا حدث لمصنعك؟

رد سراج : المصنع دائما على نفس الحال ، لقد رأيته هذا الصباح مجدداً ويبدو أن أحدا لا يريد أن ينهه .

قال رفيق : إذن إنهيه أنت .. إنه حالة إستثنائية ، مم تشكو ؟

- أنت تسخر مني يا ملعون ؟

- إسمع يا سراج ، أنا لا أسخر منك ، أحاول فقط أن أبعدك عن طريق الشر ، صدقي ، العمل ليس أمراً هاماً بالنسبة لك ولا لنا .

قال سراج : ربما ، ولكنني لا أستطيع الإستمرار في العيش هكذا .

- أنت شاب ، وأنا أشفق عليك ، أنت لا تعرف ماذا يعني مصنع .

- وأنت ، هل تعرف ؟

قال رفيق : نعم عندما كنت أدرس كي أصبح مهندسا ، جعلونا نزور المصنع ، انما مباني ضخمة غير صحية وكثيية ، وقد قضيت فيها أكثر اللحظات رعبا في حياتي ، رأيت رجالا يعملون في هذه المصانع ، إنهم

ليسوا بشرا ، فهم يحملون البؤس المرسوم على وجوههم ، وإذا كنت قد تركت دراستي فلأنني لم أكن مستعدا أن أكون رئيسا لهذه الجموع الميئة بالمعاناة .

إرتعد سراج لهذا الابتهاال المرير ، وأغلق عينيه ، ورأى حلمه الرومانسي في العمل ينهار ، وغاص في متاهة من الألم لا يقدر عليها ، وهكذا فإن العمل ليس سوى لعنة ، ومعاناة ، سكت سراج، قد أحس أنه فريسة لقلق صارم .

ساد صمت لبعض الوقت ، ثم سمعا حركة خفيفة ، قفز رفيق بعيدا عن السرير ، وفتح الباب وألقى نظرة على الممر ، وهو يقول :

– لا ، لا يوجد أحد .

سأل سراج : هل تعتقد أنها الحاجة زهرة ؟

– أجل ، أعتقد أنها هي ، لا يهم ، يجب أن أتحرك وإلا نمت ، ياللبؤس ، لا أستطيع أن أعتمد على أحد منكم ، فأخوك جلال ينام قرير العين وهو لم ينتبه بعد الى الكارثة التي تهدده .

ولكن عما قريب لن يستطيع النوم .

قال سراج : ماذا ستفعل لتمنعه من النوم ، لا شيء يمكن أن يوقظ جلال ولا أعتقد أنه يفكر في هذه الحكاية ، بل عليه أن ينساها .

قال رفيق : لن ينساها طويلا ، فقد إكتبت برؤيته يستريح في هدوء ،
بينما أنا أموت من السهاد ، عليه أن يساعدني .

- يا الله ، لم أر جلالا يغادر سريره كي يقاوم قدوم الحاجة زهرة ،
أنت مجنون لأنك تفكر فيه .

- صدقني ، سأصل الى حد أن أطلق الرصاص على سريره ، فهو لم
يخس بعد بهذا الزواج المأساوي ، وعندما سيعرفه لن ينام قط .

راح رفيق يمشي في الغرفة ، ومن وقت لآخر ، يتوقف أمام النافذة ،
كانت حجرة سراج تقع في الجانب الخلفي للمترل ، وتطل على أرض
خراب ، تنمو فيها شجيرات هزيلة تختلط بكل أنواع النفايات .

وسط الأرض كانت هناك نخيلة، جافة ، وبلا ثمار، وعلى جذعها يأتي
الناس لقضاء حاجتهم، وفي تلك اللحظة، قرص طفل، ورفع جلبابه حتى
أجزائه الحساسة، وراح ينصرف بشكل كئيب ، وعلى مسافة أبعد قليلا،
شاهد الخط المتعرج للبيوت التي تتجاوز الحقول ، بدا رفيق سعيدا، فقد
نبه سراج لتوه من أوهامه، وأراد أن يحذره بشكل محدد من العمل، انها
خدمة جليلة يؤديها له، إستدار وقال بفضافة واضحة :

- هل تعرف يا عزيزي ساج ، أن هناك الكثير من البلاد يستيقظ فيها
الناس في الرابعة صباحا كي يذهبوا الى المناجم ! .

قال سراج : المناجم ، غريبة ، هل تريد إخافتي ؟

بدا مرتبكا ، انتهى هذا المفهوم المثير للعمل الذي جعله رفيق يذوقه
نقطة نقطة ، مثل السم ، بأن بداله حقيقة ، أراد أن يتعلم منه المزيد
ولكن رفيق سكت ، وإستعاد سيره عبر الغرفة :

– أخبرني ، يا أخي رفيق ، أنه ليس صحيحا ما قلته لي لتوك ؟

– ماذا ؟

– أنه في بعض البلاد يستيقظ الناس في الرابعة صباحا ليذهبوا للعمل
في المناجم .

قال رفيق : خصا ، هنا ، ليس لدينا مناجم ، ولكن هذا سيحدث ،
سوف يتم اكتشافها ، سيكتشفون اي شيء لكي يعمل الناس ويكدون .

– ولكن أليس من الممكن أن يعملوا في أي مكان آخر ؟

– من قال لك هذا ؟

– لا أحد ، ولكني إعرفك أفضل من الناس ، أقول لك أنهم لن
يتأخروا طويلا في إفساد هذا الوادي الخصيب ، ويحولونه الى جحيم ،
هذا هو ما يسمونه تقدم ، ألم تسمع هذه الكلمة ، حسنا ، عندما يحدثك
، رجل عن التقدم فإعرف أنه يود إستغلالك ، على كل ، بالنسبة لما نحن
فيه ، فإن أمننا رائعاَ يمتد حولك ، وأنت تريد الخروج منه ، أنت مجنون ،
أنت لا تعرف ماذا ينتظرك .

توقف رفيق من جديد أمام النافذة ، ولم يقل شيئا ، نظر الى النخلة الذابلة التي توازن بلحها بشكل يثير المل ، لقد رحل الطفل ، وحل محله رجل طاعن في السن ، يلف شريطا على رأسه ، بدا كأنه يقف سيظل يقف للأبد ، وقد ثبت عينيه في الأفق ، بشكل يائس ، وراح يدقق في الكيان الآدمي الجالس القرفصاء ، وقد بدا سعيدا في غوائطه ، إستدار رفيق ، وإقترب من السرير .

- أخبرني ، لقد سألتك أثناء الغداء عن بعض الاخبار التي تجلبها من الخارج في الحقيقة أريد أن أعرف ظروف الطقس ، هل الجو شديد البرودة ؟ أم هل هناك الكثير من الغبار ؟

- لماذا كل هذه الاسئلة ؟

قال رفيق : يجب أن أخرج .. لكني لم أقرر بعد ، ليس هذا سوى فكرة .

نظر سراج الى أخيه بكل دهشة :

- هل ستخرج يا رفيق ؟

- نعم ، سأخرج ، لكن صدقي ، ليس للبحث عن عمل .

والآن ، نم جيدا ، وسوف أحاول أن أبعد الشر عنا .

خرج من الغرفة ، وأستدار في صالة الطعام ، وقد إنشغل بنفس
الفكرة ، أن يمنع الحاجة زهرة من رؤية أبيه ، تمدد على الأريكة وانتظر ،
ولم يدم إنتظاره طويلا ، فقد كبس عليه النوم وتكوم كأنه ركام مكدسة.

منذ ان علم من رفيق أنه في بعض البلاد يستيقظ الناس في الرابعة صباحا كي يذهبوا للعمل في المناجم ، وسراج يحاول أن يفعل شيئا ، إكتشف في الدولاب منها لم يعد أحد يستعمله فأصلحه بنية إستخدامه ، ولأنه ينام وحده في غرفته ، فيمكنه أن يستخدم هذه الآلة عرى طريقته ، في أول يوم ، أثار جرس المنبه ضجيجا ساد المنزل بأكمله ، فسراج لم يعتد قط على مثل هذا القطع العنيف للنوم ، فترك المنبه يدق بلا توقف.

تصور أنه في كابوس ، في هذا اليوم أحس بأن ليديه حيوية مدهشة ، ولكن بعد بضعة لحظات ، لم يعرف ماذا يفعل ،فنام مرة أخرى ، وعاد في اليوم التالي ، وفي الأيام التالية راح يلف المنبه بفوطه ليخنق ضجيج الجرس ، ولكن هذه المحاولات ظلت دوما غير مثمرة مثل المرة الأولى ، هل كان رفيق يكذب عمدا لأخافته ، تنتاب سراج الآن شكوك حول إمكانية الإستيقاظ صباحا ، هذا أمر لا يمكن أن يتحملة سوى الرجال الأصحاء ذهنيا الذين يعملون في المناجم في مثل هذه الاسعة المنحوسة قبل الفجر ماذا يضطره أن يمتن هذه المهنة المجنونة ؟ لقد درس رفيق في مدرسة الهندسة ، وكان عليه بلاشك أن يعرفها ، ولكن معه لا يمكن أبداً

معرفة متى يسخر مومتى يقول الحقيقة، وعبر هذه السخرية ، يمكن التعرف على عالم معتوه يبتعه الناس ، عالم يتكاثر فيه القتل الدمويين .

وكي يشغل نفسه، حاول سراج أن يجد حلا في محل أبو زيد ، فهذا يجعل الوقت يمر ولديه الإحساس أنه لن يبقى خاملا للأبد ، لقد راودته أفكار عديدة، ولكنه رماها كلها جانبا ، زجدها مألوفة ، أو شديدة السهولة، أراد أن يجد شيئا فريدا في نوعه ، يثير دهشة أبو زيد ، وأن يبين له في نفس الوقت ، أنه عضو في أسرة بالغة الذكاء ، والجادبية ، ولكن هذا لم يحدث بعد ، وسراج ليس على عجلة من أمره ، فهو يفكر ببطء ، وتأن ، وهو واثق أنه سيتوصل الى فكرة براءة .

ومنذ آخر مرة ذهب فيها الى المصنع الذي تحت التأسيس لم يخرج سراج من المنزل ، فيلزمه أن يشحذ همته ، قبل أن يغامر في هجمة جديدة الى الخارج ، الآن ، يحس أنه متآلف ، وأنه في أحسن حال بعد أيام عديدة من النوم.

إنتابته الرغبة أن يذهب ليلقي نظرة على المصنع ، بالتأكيد هو لا ينتظر كثيرا أن يراه قد إنتهى ، ولكن هذا بالنسبة له نوع من السلوى ليزور تلك الناحية التي عليه أن يعمل فيها ، فقد أحس فيها براحة وبحيوية تسمحان له إستكمال الجو الاسرى .

تمدد فوق سريره ، راح ينظر من النافذة ، وفيما وراءها كانت السماء زرقاء ، بلا أي أثر للسحب ، حيث تلمع الشمس بكل لهيها ،

انه يوم ربيعي ، ربيع تشع منه حرارة مميتة ، وكم يحس سراج بالمتعة حين يفكر في نزهة طويلة الى المصنع ، فكر في الطفل صاحب النبلة ، وهو يتساءل هل يراه ، إنتابته رغبة مجنونة أن يقابله ، فالطفل قد يكون مفيدا له ، فلن يغفر لنفسه أن يتركه يرحل دون ان يسأله عن بعض التفاصيل حول سبل حياته في الصعلكة ، فسراج يعتبره حماس يصطاد العصافير ، فسراج لم يجد أبدا في أي شخص مثل هذه المشاعر المتدفقة ، وكأن الطفل يمثل عالما له ثقله ، فهو يدافع عن نفسه بكل وعي ، وعليه أن يرى الكثير من الاشياء وأن يقترب من أشخاص عديدين ، وعد سراج نفسه ، إذا قابله مرة ثانية أن يسأله عن رأيه في إمكانية حدود الغضب والاحتدام وستكون مهاراته في الاجابة بمثابة إنقاذ حقيقي بالنسبة له .

وبكل كسل ، قام من السرير ، وتوجه نحو الدولاب ، فتحه ، وإرتدى صدرية صوفية حمراء ، وحذائه الكاوتشوك ، ثم أخذ يرتدي ملابسه .

– هل ستخرج ؟

إنفتح الباب ، إستدار سراج ، ورأي هدى ، وقد بدا عليها الضيق ، أغلقت الفتاة الباب بهدوء، ودخلت الغرفة على أطراق قدميها ، وكررت لاهثة :

– هل ستخرج ؟

قال سراج : نعم سأخرج

قالت هدى : انتظري ، سأرتب الأطباق ، وسنخرج معا .

قال سراج : مستحيل ، فورائي أمور عاجلة ، ولا أستطيع إنتظارك

قالت هدى : ليس صحيحا ، الحقيقة أنك لا تود الخروج معي ، أنت لا تحبني .

تكلمت بصوت طفولي ملئ بنبرات ساذجة ، أثرت في سراج بعمق ، هذا الحب الذي تشهده عليه هو عائق لمشاريعه في الهروب نحو حياة حقيقية ، أراد أن يتركها تنتظر بهذا الوجه الطفولي العاشق العنيد ، انه ضعيق يريد النوم من جديد ، فهو لا يستطيع أن يتحمل رؤيتها تعاني ، قال بكل ما به من رقة :

- لا طبعاً ، أنا أحبك ، وأنت تعرفين ، فقط ، ليس لديّ وقت ، يجب أن أخرج حالا .

بدت حزينة مقطبة الوجه ، لم تصدقه ، تعرف أنه ليس وراءه أي أمر عاجل ، وأن رغبته في التصعلك تدفعه للخروج ، قالت :

- من الافضل أن تنام .

- لقد نمت فيه الكفاية ، يجب أن أخرج ، ألا تفهمين ؟

- ماذا ستفعل بالخارج ؟ أخاف عليك لو خرجت .

- لست سوى فتاة صغيرة ، لماذا تخافين ؟ كل الناس يظنون نياما في منازلهم ، أنت لاتعرفين شيئا عن الحياة .

قالت : لكنك لست كالأخرين .. أخاف عليك .

- أنت غبيه .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ هل تعرفين يا هدى أن هناك بلاد يستقبط فيها الناس في الرابعة صباحا ليذهبوا للعمل في المناجم ؟

- هذا أيضا من اختراعتك .

- لا ، لقد أخبرني رفيق .

قالت هدى : ليس ذلك صحيحا ، أنه بالتأكيد يكذب عليك

قال سراج : هل تعتقدين ذلك ؟ على كل ، فالأمر بالغ الصعوبة ، لقد حاولت ولم أستطع .

- هل حاولت أن تستيقظ في الرابعة صباحا ؟ لماذا ؟ لا توجد مناجم هنا ؟

- أكد لي رفيق أنه ستكون هنا قريبا ، يجب أن أخرج .

قالت هدى: أسكت ، أنت تخيفني ، ألا تريد أن تنتظري ؟

انها تحس بشيء يربطها به ، هي الفتاة الصغيرة ، نوع من الحب الخاطئ المثير للمتاعب .

لقد قبلت منه كل شيء ، وهي تتكبد من أجله الإهانات والشتائم ،
فهي تعرف أنه يريد مغادرة المنزل ، تساءلت كيف تمنعه ، سوف تطير
من الفرحة لو صاحبها معه .

إقتربت منه ، والتصقت به وضمته بين ذراعيها ، انه طويل ، يدفعها أن
ترفع رأسها كي تنظر إليه ، بدت كأنها تتوسل برقة ، بينما إرتسمت على
سراج إبتسامة ، قالت :

- داعبني :

- ليس لدي وقت ، وكما قلت لك يجب أن أخرج ، ولا أريد أن
أتعب نفسي ، فطريقي طويل .

وضمته بقوة اليها وهي تتوسل إليه :

- داعبني .

وضع سراج ذراعيه حول رقبتها وبدأ في تقبيل فمها، أحس بها
ترتجف، وفهم أنه لن يتخلص منها إلا ببضع مداعبات، أحس بلذة عناقها
وذهب ليجلس على السرير ، فلحقت به هدى، واحتكت به بحركات
مشيرة، لمعت عيناها بمكر ، إنقلبت على ظهرها، وإنظرت ممتثلة، وإقتربت
منها مهتاجاً، ابتسمت ملء شديها، وهي تخفض أهدابها، وتقلص وجهها
من الانتظار، ومرت لحظة طويلة ظلت خلالها غير قادرة على الحركة،
رفع سراج فستانها .

وكشف عن ساقها السمرالوين الرقيقتين ، نظرت هدى الى سراج ،
أحست به يرتعد في اعماقه كطائر جريح ، مرر سراج يده الرقيقة فوق
ساقها ، حتى وصل الى نقطة حساسة من جسدها فتراجع ، أطلقت
تنهيدة خفيفة ، تعلقت به بكل قوتها ، أجبرته أن ينام إلى جوارها .

أمسك طرف قدميها الذي تدفق عبر فستانها ، فتركته يفعل ، بدت
سعيدة متخابثة ، إستندت رأس سراج على صدرها ، أحست به كأنه
يكاد أن ينام ، قالت :

– هل تعرف أن جلال وعدني أن يعطيني خمسة قروش إذا كشفت له
عن صدري ؟

أرتد سراج نحو الخلف ، نظر إليها ببله ، وقال :

– وعدم بخمسة قروش ، انه يسخر منك ، فهو لا يملك نقوداً .

قالت هدى : إذا كان معه ، هل تصدق أنني سأفعل ؟

قال سراج : لا أعرف ، ربما يرغبك أن تفعلي .

قالت : إذا أجبرني ، فلن يكون نفس الشيء ، ثم أنه لن يحدث .

– لماذا ؟ انه لن يداعبك رغما عنك

قالت هدى : لا ، لقد حاول ، ولكنه شديد الكسل ، انه يجب النوم
أكثر .

قالت هدى : لاشك أن هذا يمنعه ، يريد التسلية بين وقت وآخر دون
تعب ، ألسنت غيورا ؟

ابتسم سراج ، وهو ينظر الى هدى :

- لست غيورا .

سكت هدى ، وبدت متعثرة ، فهي تحب أن تراه غيورا ، قالت :

- الذي يجبرني دائما هو رفيق ، لا أعرف ماذا أفعل كي أهرب منه .

قال سراج : ألا تحبين رفيق ؟ أنه شاب رائع ، هل تعرفين أنه يقضي
وقته في السهر في صالة الطعام ، كي يمنع الحاجة زهرة من رؤية أبي ؟
فهو يطاردها منذ أيام ، وسوف يخر مريضاً بالتأكيد .

قالت هدى : أعرف ، أنه لا يطارد الحاجة زهرة ، بل يقضي أغلب
وقته في مطاردي ، أنا أيضاً .

قال سراج : هذا يعجبك ، أنه رفيق ، لماذا لا تحبينه ؟

قالت هدى : أنا لا أحب سواك ، وأنت شرير معي

قال سراج : لست شريراً ، فقط أفكر في شيء آخر

قالت هدى : فيم تفكر ، يا الله ؟ أنت أكثر جنونا من الآخرين ، أنا
شديدة البؤس .

قال سراج : الآن ، إذهبي ، يجب أن أخرج ، فقد تأخرت .

قالت هدى : لا تذهب بعيدا .

وقامت من فوق السرير ، ورتبت ملابسها ، وخرجت من الغرفة على أطراق قدميها .

أغلق سراج سور الحديقة وسار في إتجاه الطريق معتل المزاج ، وأحس بالمهانة ، وراح يلعن نفسه لامتناله نزوة هدى ، فهو ليست لديه الآن القوة اللازمة للذهاب إلى المصنع ، يجب أن يؤجل هذه الزيارة إلى مرة أخرى ، وضع في حسابه كم أن هذه الفتاة تثقل عليه أكثر من النوم ، فتعلقها به سوف يفسد محاولته من أجل حياة عملية وحررة ، إنما عقبة أكثر من حلم لن يتولد سوى في الهروب يوما من منزل الأسرة ، كيف يمكنه أن يتخلص منها ؟ رغم أنه لا يزال طفلا ، فسراج يحس نحوها بشفقة ، إنما بائسة ، وهو يعرف ذلك ، وستكون أشد بؤسا عندما يرحل.

إبتعد سراج عن الطريق الرئيسي، وقرر أن يذهب لرؤية أبو زيد في حانوته ، أراد أن يقدم لبائع الحرنكش بعض الأفكار القيمة التي يمكن أن تعطيه إنطلاقة حقيقية في تجارته التافهة وهكذا ، فإن بعد ظهورته لن تكون فاشلة تماما ، فالجو حار ، وشبه خائق ، راح سراج يتنفس بصعوبة، وأحس أنه يكاد يفقد البصر من إنعكاس الشمس التي تنفجر في كل مكان ، وتبدو المنازل على جانبي الطريق كأنها مدهونة بدهان يلمع في الضوء ، مشى سراج بخطى مترنجة ولديه نية المغامرة في منطقة تغمرها أضواء البرق ، مليئة بالعوائق الغير متوقعة ، أحس بيده رطبة في أعماق

جيوبه ، فأخرجها ودلكها ببنطاله ، ثم تابع طريقه ، الذراعان متأرجحان ،
والمخ خاو والعينان تحمقان في الأرض ، والمارة نادرون في الشارع ،
فهذه ليست ساعة التزهة ، وهو لا يريد أن يتكلم ، ثم أن الناس إعتادت
النظر إليه بطريقة غريبة ، أنهم يعرفون أسرته ، ويبتسمون ببلاهة عند
إقترابه ، وفي كل مرة يحس سراج بأنه يموت ، فجأة رأى ميمي ينطلق من
حارة ، ويسرع نحوه ، وعلى شفثيه إبتسامة بينما هو يمسك كلبه سمسم
، ذلك الحيوان المسكين ، البليد والقذر ، والذي لا يتركه قط ، قال
ميمي :

- سلام عليكم ، لم أرك منذ زمن ، هل أنت على ما يرام ؟

رد سراج : أنا لا أخرج كثيرا ، هل تنتزه ؟ وكيف حال كلبك ؟

قال ميمي : إنه حيوان قذر ، إنه مصاب باللامبالاة ، إسمع ، أنا أود
أن أراك .

هتف سراج : يا ه ، فيم يتعلق الامر ؟

قال ميمي : أريد أن أكلمك ، لقد حمت طيلة الأيام الأخيرة حول
متزلك آملا رؤيتك ، لكنني لم أجد فرصة .

قال سراج : هل الأمر خطير ؟

سكت ميمي ، ثم نظر الى سراج من طرف عينه ، التي تشع برغبة
مزعجة وقال :

- آه ، لا شيء بعينه ، فقط ، كنت أريد رؤيتك .

قال سراج : أنا سعيد بلقائك

سأل ميمي : حقاً ؟

رد سراج : طبعاً ، أحب كلبك كثيراً .

قال ميمي : هل تسمح لي أن أصحبك لحظة ؟

رد سراج : بكل سرور

ورحاً يمشيان في الظل ، أحنى ميمي رأسه نحو كتفه ، وابتسم في متعة ، لم يكف عن التحديق في سراج بطرف عينه ، انه شاب مراهق غريب ، يرتدي ملابسه على أحدث طراز ، وبشكل مريب ، تبدو أهدابه الساحرة منتوفة وعيناه سودهما الكحل مما يعطي لنتراته إصراراً غامضاً ، سار بطريقة غريبة ، وهو يهز فخذه بكل خفة ، ومن وقت لآخر ، يخرج من جيب سترته حفنة من لب البطيخ المستوى ، ويروح يقزقزها في إشتهاء شديد ، سأل سراج :

- هل تريد لباً ؟

قال سراج : شكراً ، أنا لا أحبه .

- أنت مخطئ ، فهو لذيذ ، للأسف ، من الصعب أن نقزقز اللب عندما لا نعرف كيف نتعامل معه .

قال سراج : لم أتمكن من فعل ذلك قط ، في منزلنا ، لا نأكله أبداً .

قال ميمي : أجل فهو عمل صعب عليكم ، وأنتم لا تجربون بالمخاطرة فيه ، فأنتم تحبون كل ما يؤكل بسهولة ، ولا تميلون الى التعب .

قال سراج : لا ، ببساطة لأن احدا لا يحبه .

قال ميمي : فهمت ، لست في حاجة أن تشرح لي ، لا تغضب لأنني قلت ذلك .

قال سراج : لست غاضبا .

قال ميمي : خسارة ، أنا ممتن لمقابلتك .

ورمش بأهدابه وابتسم ، له شفتان جميلتان وحمراوان ، ملحمة قليلا ، أما سراج فقد إنزعج كثيراً ، لم يشرح له ميمي حتى الآن لماذا أراد أن يراه ، إنه يعرفه جيدا ويخمن السبب .

أحس بالسعادة وهو يقطع الصمت :

— هل ما زلت ترسم ؟

قال ميمي : نعم ، أعتقد أنني رسمت بعض اللوحات الغريبة ، أتريد أن تشتريها ؟ فأنا لم أبيعها بعد .

كان ميمي تلميذا في مدرسة الفنون الجميلة ، يدرس الرسم ، ويتصرف كفنان كبير ، ولم ير أحد لوحاته قط ، ولكنه يزعم أنها أعمال

عبقريّة ، وأسرته تصدّق كلامه ، أما بالنسبة لاصدقائه العديدين ، فإنهم يفتابونه ، بكل وضوح ، فقد نال شهرة في الحي بغرابة أطواره ولعاداته الغريبة ، سأل سراج :

– هل عُرضت عليك أموالاً كثيرة ؟

قال ميمي : بالتأكيد ، لكنني لا أهتم بالنقود ، أنا أرسم فقط من أجل الفن .

قال سراج : جميل ، لعلك سعيد .

قال ميمي : الفن يهمني ، لذا أهتم كثيراً بأسرتك ، فأنت أيضاً في تكوينك فنان .

قال سراج : لا أفهم ، لسنا فنانين ، أنت مخطئ ، فنحن لم نفعل شيئاً .

قال ميمي : هذا هو الأمر ، هذا الفراغ ، في رأيي ، فن راق وجذاب .

قال سراج : أنت رقيق للغاية ، وأؤكد أنك مخطئ ، لسنا فنانين .

سكت ميمي ، فهو سعيد لأنه عبر عن نفسه بهذه المشاعر ، وحسب قراءاته الغريبة ، فإنه يحمل مفهوماً ضبابياً حول علم الجمال المعاصر ، فسلكه الغريب له أيضاً نفس الجذور ويؤمن تماماً أن الفنان الحقيقي يجي

أن يكون شاذا بطبيعته، إزاء صديق يسأله إذا كان يؤمن بفلسفة كاتب
معاصر حديث .

أجاب ميمي : لماذا تريد أن أفكر فيه ، إنه رجل متزوج ؟

أسعدته هذه الإجابة بشده ، فهو يجب أن يتقرب لسراج ، لكن
سراج لم يسأله شيئا .

لا يهم ، سيكون هذا في مرة أخرى ، لعق شفثيه بلسانه وابتسم ،
يبدو عليك أنه يهب نفسه لمؤامرات دنيئة.

فجأة حدث شيء ما ، فقد راح سمسم يتشمم كلبة دلفت من أحد
الأبواب ، سحبه ميمي بغتة من سلسلته ، وأعاد اليه سمسم المسكين
الذي نبح بصوت مخنوق :

— تعال هنا ، إيها الحيوان القذر ، أأست خجولا ، انما أنثى .

ربت سمسم تحت ساقي ميمي وقد بدا عليه الارتباك والحياء ، أما
الكلبة الساحرة فقد ظلت في نفس المكان ، نظرت إلى المنظر بدهشة
بادية ، إنحنى ميمي ، وأمسك زلطة وألقاها ناحيتها ، فقفزت الكلبة
وهربت دون أن تسأل عن السبب ، نظر اليها سمسم وهي ترحب وقد
أصابه الندم ، وعانى من موقفه غير المنطقي ، انه كلب نحيف أحمر الشعر
وعينان محوطتان بالفسوق ، لا يعتمد أن يكون شاذا ، ويخشى أن يغضب
سيده ، يشده ميمي بقسوة في كل مرة يحاول أن يتقرب فيها من الأنثى ،

بينما أستسلم سمسم الى الكلبة ، ومال الى مسابرة غريزته التي بدت له بمثابة خطايا مأساوية ، فراح ميمي يوجه له الضربات والشتائم .

صرخ ميمي، وهو ينهي كلبه بوقاحة بادية :

- يا ابن العاهرة ، سوف أقتلك

قال سراج : ما يدهشني ، هو الطريقة التي تعاملت بها لتوك مع أنثى

قال ميمي : أنا أعرفهن ، تلك الحيوانات القذرة ، انها قذرة ويملاها القمل .

قال سراج : هذا أمر مدهش ، وليس لديّ شيء أخمنه .

سارا لحظة ، دون أن يتكلما ، كانا تقريبا وحديهما على الطريق ، ومن وقت لآخر يستدير ميمي ، ويلقي خلفه نظرة خلسة ، بدا كأنه ينتظر قدوم أحد ، دس يده في جيبه ، ثم سحب حفنة أخرى من لب البطيخ ، وراح يقزقزها ، واحدة أثر واحدة ، فصدر عنه صوت جاف أغضب سراج ومنعه من النعاس ، هز رأسه ، ونظر أمامه ، فجأة ظهرت عربة حنطور على الطريق ، إقتربت ببطء كأنه في حلم ، يقودها حوذي يبدو عليه الغبن ، ضرب الجواد بحركة جنونية ، وفي داخل العربة الحنطورة جلست امرأة متكأة على فخذيها ، امرأة ذات أهمية كبرى ، كأنها كتلة من اللحم المعبق بالدهن ، رفعت الريح تنورقها فكشفت عن

جسدها البدن بطريقة شديدة الإبتدال ، فأطلق الشبان الصغير المتقطع ،
قال ميمي :

– يا له من أمر مرعب ، هل رأيت ؟

لم يرد سراج ، فعليه أن يسرع الى محل أبو زيد ، فلا شك أن وجود
ميمي يشئت فكره ، خاصة أنه لا يستطيع أن يتحمل صوت ، ميمي
الناعم الرخو ، يتصرف كأنه سكر مذاب ، أحس سراج بأنه واقع في
شرك ، انتابته أحاسيس غريبة في جسده ، وأراد أن يسترخي على
الطريق وينام .

لم ينتبه ميمي اليه ، فقد تملكه إحساس ضخم بالعظمة ، وأصابه
القلق، فهو يلتفت حوله في كل لحظة ، يبدو أنه ينتظر شيئا ما ، فجأة بدا
كأنه تخفف عندما رأى رجلا يتوقف عند حانوت الدخاني ، انه رجل
في الأربعينيات ، مبروم الشارب ، ويضع خواتم ضخمة في أصابعه ، وقد
مال طربوشه المنتصب على أذنه اليمنى ، يمسك في يده عصا ،لقى ميمي
نظرة مستترة ، ثم أشعل سيجارة ونفث الدخان بكل براءة ، ابتسم
ميمي، واستدار نحو سراج ، ومرر ذراعه تحت صدره ، وقال :

– تبدو مشغولا ، هل أنت عاشق ؟

قال سراج : لست عاشقا .

ابتسم ميمي وقال وقد بدت عليه النشوة :

- آه من الحب ، لا أستطيع أن أعيش بدون حب .

سكت سراج ، وأكمل ميمي بعد قليل :

- أخبرني كيف حال أخيك رفيق ؟

رد سراج : على ما يرام .

كان ميمي زميل دراسة لرفيق ، وهو يكن له دائما إعجابا ، ويجب أساليبه الجافة ، وبحة صوته ، وهذا الشحوب لرجل حسي يثير خياله ، وللأسف ، فإن رفيق يرد دائما على صديقه ببرود جاف وإزدراء ، ويشعر ميمي في كل مرة بأنه مجروح ، ولا يميل أن تتطور علاقتهما .

ورغم كل شيء فهو يبدو سعيدا عندما يراه ، وبأتلف بحضوره ، و لكن منذ ن قرر رفيق أن يحبس نفسه في المنزل ، أصابت ميمي خيبة الحبيب المهجور ، في الحقيقة ، فإن كل هذا الحديث مع سراج لم يكن له أي هدف سوى أن يعرف أخبار أخيه .

قال ميمي : لماذا لا يخرج دائما ؟

قال سراج : أنه لا يحب الناس ، يفضل البقاء في المنزل .

قال ميمي : انه يكرهني ، ففي كل مرة يراني ، وهذا نادر الآن ، فإنه يتجنبني ، ماذا فعلت له كي يكرهني ؟ هل تريد يا عزيزي سراج أن تسدي لي خدمة ؟

قال سراج : بكل سرور ، ما هي ؟

- حسناً أريدك أن تسأل رفيق لماذا لا يحبني ، فهذا أمر هام بالنسبة لي ، فأنا متمسك دوماً بصداقته ، هل ستبلغه بهذا ؟

قال سراج : لن أنسى ذلك .

إستدار ميمي ، وألقى نظرة خلفه ، نحو الرجل ذي الشارب ، والخواتم الضخمة الذي كان يتبعهما من بعيد ، وهو يداعبه ، إقترب ميمي من سراج وهمس في أذنه :

- أعتذر كثيراً ، ولكني مضطر أن أتركك ، فلدي موعد .

بدا وهو يقول هذه الكلمات كأنه يبوح لسراج بسر دفين عن ظروفه ، ثم قال قبل أن يتعد : كم أنا سعيد أن أراك ، السلام عليكم .

وأمام حانوت أبو زيد ، توقفت مجموعة من الأطفال ، انهم من مدارس قريبة ، صبيان وبنات ، يحملون كتب المدرسة بين أذرعهم ، ويختارون من الحلوى وهم يمرحون ، راح أبو زيد يقدم لهم خدماته بكل اللامبالاة ، بدا أقل فرحاً بمؤلاء الزبائن المزعجين ، انتظر سراج حتى إنفضوا جميعاً ، ثم تقدم نحو أبو زيد وقال :

- السلام عليك ، أيها التاجر الماهر .

- آه ، هانت يا بني ، يا الله ، وفر سخريتك .

مال سراج نحو أبو زيد تاركا النوم يسيطر عليه ، ونظر اليه أبو زيد
وهو ينام وأغلق له عينيه ، وخلفهما ، كان الباعة الجائلون الماكرون ،
يتملكهم الجنون من الخانوت الخاوي .

إستيقظ العجوز حافظ مترعجاً ، قهره الرعشة ويغرق
جسده عرق بارد ، فقد حلم لتوه حلما سيئا ، حلم وعمر لا
ينتهي ، وبحركة محمومة رفع المنديل الذي يعصب عينيه
مرتعدا تحت الغطاء وقد إنتابه الخوف ، حاول أن يتذكر
صور حلمه ، ولكن كل شيء تداخل في ذاكرته ، فهو لم
يحتفظ في داخله سوى بذكرى مزعجة ، داعب شعوره
بالشيخوخة وما لبث أن خدأ ، وراح ينظر حوله ،

فالغرفة غارقة في ظلام دامس ينم عن زمن غير حقيقي ، جاهد العجوز
حافظ أن يتعرف على الوقت وأن يحدد شيئا ما ، جالت نظراته في
الغرفة، وتوقفت فوق طبق موضوع على المائدة ، وتذكر أنه تناول
غذائه، انه الآن بعد الظهيرة ، وتجاوز القيلولة ، رمى بمنديله الذي كان
يلتف تماما حول رأسه ، والذي عليه أن يحميه من ضوء النهار كي
يستطيع أن ينام مرة أخرى .

جلس فوق سريريه، وراح يفكر ، كالعادة فإن أفكاره تبدو خالية من
كل المشاعر، فمنذ بعض الوقت ، تنتابه أفكار غاضبة ، ويمتلكه قلق
شديد ، هذا الزواج الذي قرره ، عند أقول حياته ، يشغله بكل الموازين،
إنها رغبة في شباب جديد ، وفي نفس الوقت ، نوع من السلطة ،

الإجتياح الأخير على رغبته الخابية ، فروحه غير الاجتماعية قد إمتلأت بكافة أنواع التروات ، لذا فهدفه الأساسي أن يعارض من يحوطنه ، فمنذ سنوات لم يقدم برهانا حقيقيا عن قسوته السيئة ، وبدأت أسرته تنساه ، ولذا فهو يرغب قبل أن يموت أن يترك ، بقوة طغيانه ، أثرا لا يمحي .

ظل العجوز حافظ ينتظر منذ أيام ، وبصبر نافذ ، حضور الحاجة زهرة ، لقد وعدته أن تهم به ، انها خاطبة مشهورة تجعلها مكاسبها الكبيرة شديدة المثابرة ، ومن هذه الناحية ، فالأمر لا يهم العجوز حافظ ، ولكنه يتهم بشيء آخر ، توقف فكره ، أعار أذنه الى صمت المنزل ، لم يسمع أي صوت قادم من الدور الارضي ، فالصمت يلف كل مكان ولا يتغير ، نحن أنهم نيام جميعا ، فكر حافظ في أبنائه بمرارة ، فهو لم يرههم منذ فترة طويلة ويحدث أحيانا أن يظل شهورا دون أن يراههم ، لكنه يعرف من العم مصطفى كل ما يحاك ضده ، فهذا الزواج لا يعجبهم ويعرف ان رفيق قرر قيادة التمرد ، وأنه أقسم أن يقتل الحاجة زهرة ، لقد منحه الكثير من الحرية ، إهم يتصورون الآن أن كل شيء مباح ، لكنه سوف يحطمهم ، وسيبين لهم أنه سيد المنزل .

للأسف، فهذه المعارضة التي يواجهها من أطفاله لا تمثل بالنسبة له أي أهمية ، لكن العاهة الثقيلة التي يعاني منها تشغله كثيرا ، هذه العاهة يعتبرها العجوز حافظ العقبة الوحيدة أمام زواجه ، وهو لا يستطيع أن يفكر فيه دون أن يرى حلمه في الزواج المتأخر ينهار فجأة ، أبعد الغطاء،

ورفع قميص نومه وفحص أسفل لطنه بعين قلقة " أليطة " كبيرة تبرز مثل تل صغير بين ساقيه الضامرتين ، أنه شيء حقيقي مرعب ، في كل مرة ينظر العجوز حافظ الى هذه " الأليطة " ، يندهش من منظرها ، ومع كل يوم جديد فإنها تأخذ شكلا مغايرا ، ويحزن العجوز حافظ من هذا الإكتشاف ، ويتساءل بقلق كيف يمكنه أن يقدم نفسه الى عروسه الشابه بمثل هذه الكارثة .

مد يده المرتبكة ولمس بكل حذر الكتلة المتورمة الجامدة ، ثم بدأ في جمعها على الطرف ببطء متعمد ، نظر العجوز الى هذا الكيان الضخم بين ساقيه آملا أن يراه مندملا ، ولكنه على العكس يبدو وكأن حجمه قد كبر بين يديه ، انه شيء مثير للضحك والسخرية ، وطوال دقائق راح ينادي هدى ، لم يرد عليه احد ، أمسك علبة السجائر الموضوعة تحت الوسادة ، فسحب واحدة وأشعلها ، ثم نادى من جديد ، هذه المرة سمع خطوات هدى وهي تصعد السلم جارية .

– ألا تسمعي عندما أناديك ؟

راحت هدى تلهث قليلا ، فهي دائما ما يصيبها خوف عندما تدخل غرفة العجوز ، تحس بنوع من القلق الطبيعي ورغبة في التقيؤ ، قالت :

– لقد سعدت لتوي .

أخفضت رأسها في حياء ، فقد تناثر شعرها تحت منديل قرمزي مطرز بأصداف كبيرة بيضاء ، نظرت الى العجوز من أسفل أهدابها ، وانتظرت

أوامره ، فهو يطلب أحياناً أشياء مرعبة ، وهي تخاف ان يكشف لها عن " الاليفة " ، ودائماً ما يكشف لها العجوز حافظ عن عاهته .

بساطة كي يحكم على تطور الأمور ، شجعه الصمت الذي ألكم هدى ، لكنه هذه المرة لم يفعل شيئاً ، تحرك في سريره وزمجر :

— إفتحي النافذة

توجهت هدى الى النافذة وفتحتها ، فأنسال بعد الظهيرة الى الغرفة ، وجعل مظهر الأشياء كأنها ميتة ، إنها غرفة واسعة مليئة بأثاث ثقيل ، باهت وملئ بالغبار ، أحس العجوز بأنه يغرق في دائرة مسرفة من الضوء، رمش بعينه واستدار نحو الحائط :

— أخبرني يا فتاة ، ألم تأت الحاجة زهرة ؟

قالت هدى : لا ، ليس بعد

قالت : لا ، أنا متأكدة أنني لم أرها .

إستدار ونظر اليها عبر اهدابه :

— أنت تكذبن ، يا بنت الكلبة ، أعرف أن الاولاد يمنعونك أن تجعلها تصعد .

قالت هدى : ليس صحيحاً ، لم يقل لي أحد ، سوف أجعلها تصعد بمجرد وصولها :

- إسمعي يا ناكرة الجميل ، لا تنسي أنني رب هذا البيت ، ولن تتلقى أوامر من أحد عداي .

قالت هدى : نعم يا سيدي ، سأفعل ما تريد .

- وإلا طردتك من هنا ، فأنا أشفق عليك فقط من أجل أمك فلا تحاولي خيانتني ، أما بالنسبة للأولاد فسوف أتكفل بتعليمهم كيف يتصرفون ، سوف أربيهم .

ومرر يده على ذقنه ، وتحسس شعر لحيته الخشن .

- الآن .. جهزي كي أحلق ذقني .

إختفت هدى وعدات بآنية مليئة بالماء ووضعتها على المائدة ، غادر العجوز سريره ، وترجل مرتجفا نحو المقعد الكبير ، القريب من النافذة ، انه نحيف بشكل ملحوظ ، ولذا راح قميص نومه يتطاير حوله ، تقدم وهو يلتوي بساقيه المقوسين وهو يحمل " الأليطة " الثقيلة .

إنغرس في المقعد ، والقي رأسه للخلف .. وإنتظر .. بدأت هدى في دهن وجهه بالصابون بينما أغلق العجوز حافظ عينيه راضيا ن وهو يشعر بلذة حسية بهذا الإنعاش على وجهه ، ذلك الوجه ذو التجاعيد الحادة ، الذي يقطعه شارب أصفر الأطراف من أثر دخان السجائر ، تجنبت هدى ان تمس وجه العجوز ، وكأنه كعكة هشّة ، بينما إرتفعت إنفاسه ، جاهدت هدى ، وهي تحشى ان يغمي عليها ، الا تقترب منه ، سألها :

– ماذا يفعل الأولاد ؟

قالت هدى : لا يفعلون شيئاً ، إنهم نيام

قال العجوز حافظ : هذا هو كل ما يعرفون فعله ، يا الله ، إنهم يخبيون أمني ، هل يخرج سراج كثيراً ؟.

قالت هدى : لقد خرج مرة أو اثنين

– هذا الولد مجنون ، عم يبحث في الخارج ؟

يكن العجوز حافظ لاصغر أبنائه مشاعر خاصة ، فهذا الصبي يشبهه في أنه مجنون بشيطان المغامرة ، وهو لا يعرف ماذا يفعل ليحيده عن طريق الخطر الذي يتوه فيه ، أحس العجوز حافظ بأنه مسئول عن الممرارة التي يفتقدها كي يضربه لو أصر على المشي قدما في هذا الطريق .

لقد وفر له كل سبل الراحة ، وها هو يهرب من المنزل وقد إنتابته فكرة شيطانية بأن يبحث عن عمل ، بالتأكيد ، هذا الجيل غير واع وعابث ، فكر انه يجب أن يدير معه حواراً جاداً ، وان يكشف له أن هذه المرأة ليست سوى لعبة خرقاء عميقة ، فالعجوز حافظ لا يريد لأحد أبنائه ان يشرد في الشوارع ، فيرمي بذلك شرف العائلة في الوحل، وقال :

– أخبري سراج أنني لا أريده أن يخرج ، سوف يقتل هذا الطفل

نفسه يوماً .

إنتهت هدى من حلاقة ذقن العجوز حافظ عندما إمتثل العم مصطفى أمام أخيه ، فهو يقيم في الغرفة المجاورة ، قال بإبتسامة باهتة :

– جئت أطلب سيجارة .

قال العجوز حافظ مزجرا : لقد أخذت كل سجائري أنت والاطفال، إنما على السرير ، فخذ منها .

إقترب العم مصطفى من السرير ، وأمسك سيجارة وأشعلها ، إنها سيجارة عادية أخذ العم مصطفى يدخنها بكف أنف وفور ، تنهد وهو يتذكر السجائر الفخمة التي كان يدخنها في زمن ثرائه ، قال العجوز حافظ :

– أرجوك ، كف عن التنهد ، ماذا أصابك لكل هذا البؤس ؟ أليس لديك كل ما تتمناه ؟ كان العجوز حافظ لا يكن لأخيه مصطفى سوى الإحتقار بعد أن بدد نصيبه من الميراث مع النساء في الزمن الردئ ، وبعد الكارثة ، وافق أن يسكن عنده ، كنوع من العاطفة الأخوية ، وهو يشعر بدنو أجله ، لأن العم مصطفى ، منذ فترة وجيزة يبدو دائما صلفا معه ، إنه الشخص الوحيد الذي يحترمه ، وهو لا يخفي أبداً أمامه أنه يعتبره برجوازيا ورعا ، بخيلا ، وحقيرا ، ولم يغفر له العجوز حافظ هذا الموقف الجارح ، وهو الآن ينتقم منه ، قال العجوز :

– أريد أن أتكلم معك .

جلس العم مصطفى عند طرف السرير ، وراح يدخن سيجارته ، وقد
بدا بأثسا لدرجة مخيفة قال :

– اسمعك

أكمل العجوز : حسنا ، أنت تعرف قراري بالزواج .

قال العم مصطفى : انه قرار سعيد ، من الأفضل أن تهتم بك امرأة
أسمح لي أن أهنتك .

– سوف تهنتني فيما بعد ، الآن ، سأبلغك بكل ما قلته للأولاد ، فلا
تتدخل في هذا الأمر ، أعتقد أنك لست موافقا ، هذا جحود أسود .

قال العم مصطفى : أنا ، على العكس ، سأدافع عنك ، ولكن مع
رفيق لا أستطيع شيئا ، فهو يبدو أن يقتلني .

– هذا شيء سخيف ، هل ستترك نفسك فريسة لطفل ؟ رفيق ولد
سيئ ، وسوف أربيه .

– أنت على حق .

– أنا دائما على حق ، على كل حال ، هذا الزواج سيتم رغما عن
الجميع ، لقد كلفت الحاجة زهرة أن تبحث لي عن شابة من عائلة
محترمة، تسكن في مكان قريب ، أريد أن أتزوج في أقرب وقت ممكن .

وسكت العم مصطفى ، انه يعرف عناد أخيه ، وخاصة حكاية الماعز ،
انها حكاية معروفة في كل الأسرة ، وأيضاً من المعارف البعيدين ، انها
حكاية ساخرة تكشف سوء النية ، وتناقض العجوز حافظ ، فقد كان
ينتزه يوماً في أرضه ، يصحبه ابن عم له ، وكان العجوز حافظ آنذاك في
الخمسين من عمره ، توقف وسط الحقل ، ورأى شيئاً أسود في قمة أرضه
، كان الشيء بعيداً جداً ، ولم يستطع أحدهما أن يحدد بالضبط ماذا
يكون ، قال العجوز قجأة " إنها ماعز " رد ابن العم " إنها حدأة "
واعتبره العجوز أعمي وأصر على رأيه ، وبعد لحظة وبينما هو يتكلم طار
الشيء في الهواء واختفى في الأفق ، صاح ابن العم منتصراً ، هل رأيت ،
لقد كانت حدأة ؟ رد العجوز حافظ أن يكشف قلقه : " لقد كانت ماعز ،
حتى لو طارت " وأمام هذا الضياع ، ابتعد ابن العم ساخطاً ، وظل
غاضباً منه لمدة طويلة .

أكمل العجوز حافظ :

- وأنت ، ما رأيك في هذا الزواج ؟

قال العم مصطفى : انها فكرة ممتازة ، بشرفي ، أنا أحسدك .

وانتابه إحساس بالخزي المشير للإشفاق ، هو نفسه لم يسلم من هذا
التحول ، فهو لم يعيش في هذا المترل ، إنه يعاني من جاذبية هذا البيت ،
فهو لم يفكر أبداً أن تقوده يمكنها أن تتبدد ، وأن يصبح مفلساً تماماً ،

لقد عاش طويلا بعد إفلاسه في انتظار معجزة ، ولم يصدق أنه لم يعد يملك أي نقود .

الآن ، لا يزال ينتظر المعجزة ، طالما أنه يمكن للمعجزة أن تحدث ، في هذه الغرفة القذرة مع هذا العجوز العاجز الجالس فوق مقعده ، المتأرجح ، الذي يريد أن يتزوج من جديد ، نظر العم مصطفى الى أخيه ، وأعتقد للحظة أنه يحلم ، وأن كل هذا الجو الفاسد ليس سوى فخ مدبر له كي ينام ، فجأة أحس بأصابعه تشتعل ، فقد احترقت السيجارة تماما ، أطفأها في المنضدة الموضوعة على المائدة ، وتنهد لاهثا ، وكأنه يؤكد لنفسه حقيقة إفلاسه .

تلمل العجوز حافظ في مقعده ، وبرم شاربه وهو يتأمل :

- لم تخبرني أن الأطفال يتآمرون من جديد .

- إنهم لا يتآمرون ، كل ما هناك أن رفيق يقيم في صالة الطعام ، يتمدد على الاريغة ، ينتظر قدوم الحاجة زهرة ، أعتقد أنه لن يلتزم طويلا بهذا النظام .

- يا للصبي الملعون ، وجلا ، ماذا تفعل ؟

- لم يفعل شيئا ، انه ينام دوما ، لقد كلف رفيق بالمهنة كلها ، وأستراح منها ، انه صبي مدهش .

- لماذا تقول هذا ؟

- لا شيء ، فقط أرى أنه من الغريب أن ينام هكذا طيلة وقته .

- لا شيء غريب ، صدقي ، ماذا تريده أن يفعل ؟ على الأقل أنه هادئ ، ولا يزعج أحداً .

دعك العجوز أهدايه ، فأولاده يولونه أهمية وهو لا يعرف كيف يعيدهم إلى رشدهم دون أن يسبوا له إزعاجاً ، أكمل :

- يجب أن تكلم جلال ، انه الكبير ، وأخوته سيسمعون كلامه .

قال العم مصطفى مندهشا : أكلم جلال ، ألا تعرف ماذا قلت ، انه لا يقوم من سريره إلا ليأكل ، وهو لا يفعل ذلك كثيراً ، هل تعرف ماذا جرؤ أن يطلب مني ذات مرة ؟ إنه عار حقيقي لقد طلب مني أن أحضر له " القصرية" في غرفته ، لأنه يريد أن يتبول دون أن تكون له الرغبة في أن يزعج نفسه ، أنها أساليب همجية ، وأنا لا أحب هذا ، كلمه بنفسك.

- إنه أحمق ، أخبره أن يصعد ليراني ، أتساءل عن فائدتك ، فأنت لا يمكنك أن تسدي لي أي خدمة عندما أكون في حاجة الى مساعدة .

- أعتقد أنك لست معتادا على الاختلاط ، هؤلاء الأولاد لديهم روح جهنمية وسيصيبوني بالجنون .

- ولا يهتمك ، فرجل مثلك يجب أن يستخدم كل ما لديه من سلطة .

أحس العم مصطفى في هذا التلميح بروح السخرية منه ، رأى نفسه محبوسا في دائرة من الدنئات ، وهذه البهجة المقنعة البائسة ، وهذا الإناث القديم ، كل هذه الرفاهية الحقيمة والقدرة ترفع من معنوياته ، وهذا النوم الخطر الذي يسيطر على الجميع يبدو كأنه نمر عريض ، نظر الى أخيه ، هذا العجوز الذي يحلم بالزواج رغم الاليفة الكبيرة التي تبرز عبر قميص النوم ، بين ساقيه المنفرجتين ، إنه مندهش من هذه الأليفة ، تذكره بصورة قديمة ، تحمل نفس الصفات ، الساحرة والمهيبة .

إنها صورة يعود تاريخها الى سنوات عديدة ، صورة ضائعة في ثنایا ذاكرته ، حدث هذا في شقة العزوبية التي كان يسكنها في المدينة ، فالمرأة التي كانت تأتي كل أسبوع لتغسل له ، كانت تقوم بالغسيل في الحمام ، العم مصطفى لا يذكر ملامحها ، لم يكن وجهها معبرا ، إنه نوع من الوجوه المسوحة دائما في ذاكرة البشر ، كانت صامتة دائما وتقضي حاجتها بشكل ملول وفي إمتثال ، إستغرق العم مصطفى وقتا طويلا الى ان تنبه الى حقيقة وجودها ، وكأن المرأة كانت تتحرك في وجود عارض ، عند حدود الحلم ، وذات يوم تولد فيه شيء مخيف ، ونام معها ، حدث هذا مرة واحدة فقط ، ولم يفكر العم مصطفى إلا بعد عدة أشهر ، حيث لاحظ أن بطن المرأة قد إنتفخت فأصابه القلق وتساءل إذا كان هو المسئول ، وفي كل زيارة للمرأة ، كان البطن يكبر بشكل واضح ، مما يشير القلق ، واحتفظت المرأة دائما بسلوكها كحيوان لا ينفعل ، ولم تنطق بكلمة واحدة ، مما أصاب العم مصطفى بحالة هذيان ومرض ، وفي

كل أسبوع كان يرصد هذه البطن الفاجرة ، التي تبدو وكأنها تحتقره في انتفاخها ، وانتابه الجنون حين اختفت المرأة يوما ولم تعد ثانية .

خرج من هذه الحالة المحمومة من حموله ، وسأل أخاه :

– كيف حال الاليفة ؟

رد العجوز حافظ : أحمد الله ، انما تتحسن .

قال العم مصطفى : يجب أن تعني بنفسك ، فهذا يمكن أن يضايقك كثيرا .

ووضع العجوز يده بين ساقيه وداعب الورم الظاهر كأنه يداعب طفلا :

– ألا تجد ان حجمها يقل ؟

قال العم مصطفى : إنها لا تكاد ترى بالعين .

أراد أن يسعد أخاه ، فموقفه كمتطفل تطلب منه أن يكون مجاملا ، والعجوز يعرف أنه يكذب ، ولكن هذا الكذب يبدو رائعا ، سأل :

– حقا ؟

– بشرفي ، أنا لا أسخر منك ؟ منذ بضعة أيام كانت مخيفة ، أما الآن فتكاد لا تراها .

- يسمع منك ربنا ، أريد أن ينتهي هذا تماما هل تعتقد أنها ستكون
عقبة أمام زواجي ؟

- يا له من غباء ، ستكون إمرأتك سعيدة أن تعني بها ، بل ستكون
فخورة بهذا الأليطة .

وابتسم العجوز حافظ مغتبطا ، ففصاحة هذه الدعابة تبدو كأنها غير
ملموسة ، أشعل سيجارة ، وقدم واحدة أخرى لأخيه ، ورحا يدخنان في
صمت .

لم تتعجل هدى العودة الى أمها ، هذا المساء ، فقد إنتابتها
الرغبة لزيارة إمتثال ، فمنذ أن أرسلها رفيق الى منزلها ،
أقامت هدى علاقات حميمة مع العاهرة ، وهي تحب أن
تلعب مع ابن إمتثال ، وتضعه على ركبته عندما يكون
نائما ، فقد كان الطفل جميلا ، أحست هدى نحوه بعاطفة
أمومة ، وتبدو العاهرة دائما حبوبة ، وهي تستقبل هدى
وتقدم لها كل مرة العصائر ومختلف أنواع الحلوى ،

ولأن إمتثال عاهرة ، فإن هدى لم تفهم قط ماذا يعني هذا حيث أن لديها
فكرة مشوشة ، ولكن هذه الفكرة لم تفسد علاقتها بها ، فبالنسبة لها ،
يمكنها أن تكلمها عن سراج ، لأن العاهرة تسمعها برقة بالغة ، يسود
الآن فيما بينها نوع من الإستلطاف ، وليس هناك شخص آخر كي تحكي
له هدى مأساتها حول المؤامرة الأخيرة للعجوز حافظ ، وعن حاشيته
المزعجة ومفاجأتها ، إنه عبء بالغ الثقل عليها ، تريد أن تعلم إمتثال
هذه الأحداث الحسية ، فهذا يخفف مم في قلبها.

تأخر الليل في الهبوط ، وفي أكفهرار الغروب تومض المرايا العاكسة
بضعف ، كأنها نجوم خائية ، وعلى الطريق راح بعض العابرين يجربون
تكاسلهم قبل الذهاب للنوم ، وبدت البيوت بشكلها الكثيف الداكن ،

وعلى بعض الاركان هناك فتحات واسعة تطل على الحقول ، وبشاهد
الريف النائم في قفصه ، والحزن يخيم للأبد في الافق ، سارت هدى بخطى
واثقة .

كأنسة جادة لا تخلو من جاذبية ، وقد لفت شعرها بوشاح أزرق ،
وحملت حقيبة كبيرة بين يديها ، راحت تضرب على فخذيها ، هذه
الحقيبة البالغة الأناقة ، إنها هدية من إمتثال ، وكم تشعر هدى بالفخر
وهي تحملها ، فهي ، في أعماقها ، تتمل جانبا من بنات جنسها ، ولذا
فهي تتصرف بطريقة مسلية وساذجة .

يقع منزل إمتثال على طرف تلة ، وبعده ليس هناك سوى فيلات
تتناثر على طول الطريق وتخشي هدى أن تعبر الأمطار الأخيرة التي
تفصلها ، فهي تصاب بخوف طبيعي ، جرت ثم توقفت لاهثة أمام المنزل ،
ورفعت رأسها ، كانت نافذة إمتثال مضاءة ، دفعت هدى باب المنزل ،
وصعدت السلم المظلم ذي الدرجات المتهاككة ، إهتز الدرايزين ، ورأت
مناظر قبيحة على الجدران ، توقفت هدى عند الطابق الثاني ، كان باب
إمتثال على اليمين ، عدلت من غطاء رأسها ، وهندمت فستانها وعضت
شفيتها الناريتين ، ثم طرقت الباب .

مالث أن فتح الباب ، وظهرت إمتثال ، منطلقة الشعر ، وبدا
جسدها المشقوق الذي يزين الليل :

— اهو أنت ، أدخلي يا عزيزتي .

– جئت لزيارتك ، هل يزعجك هذا ؟

– على العكس ، يسعدني أن أراك ، أدخلني وأجلسني.

ودخلت هدى الغرفة ، ظلت واقفة وسألت :

– هل الطفل نائم ؟

– نعم ، انه نائم ، لكن يمكنك أن تضعيه على ركبتيك .

توجهت هدى نحو ركن الغرفة حيث يوجد المهد ، كان الطفل نائما ، رفعتة برقة بين ذراعيها ، ثم إنحنت ووضعت الطفل على ركبتيها وهي تحس بسعادة بالغة .

جلست إمثال ، صديقة الطلبة ، فوق طرف السرير على سجيتها .. ترتدي منامة صفراء مطرزة بزهور كبيرة متباعدة ، تكتسي ملامحها بحس دافئ ، وتحت ضوء مصباح الغاز ، بدا وجهها شاحبا وكأنها تضع قناعا ، فهي ذات جمال أخاذ ، ومأساوي ، قالت :

– أخبرني ، هل أرسلك رفيق ؟

قالت هدى : لا والله ، لقد جئت من تلقاء نفسي ، أحب رؤياك وأن ألعب مع الصغير .

– وأنا أيضا ، يسعدني أن أراك .

– أنت لطيفة معي .

- والآخرون ، أليسوا لطفاء معك ؟

- ليسوا أشرار ، أطفهم سراج .

قالت إمتثال : لأنك تحبينه

قالت هدى : أعتقد هذا .

- وهو .. هل يحبك ؟

- لا أكاد أعرف شيئاً عنه .

قالت إمتثال : ولن يعرف أحد شيئاً عنهم .

كان صوتها مبجوحاً ، ذا نبرات بطيئة ، يعكس الألم والبهجة معا .

أطلقت تنهيدة وسكتت ، فمنذ مغامرتهما مع رفيق ، تولد لديها حقد
دفين ضد أسرة الشاب ، وهي لن تغفر أنهم حطموا حبها ، وحلمها في
حياة كريمة ، إعتقدت إمتثال أن العجوز حافظ قد أبعد أبنة عنها لأنها
عاهرة ، ولم تعرف الأسباب الحقيقية لدوافع رفضه ، وظلت تلغنه حتى
الجيل العاشر ، سألتها :

- هل ينامون دائماً ؟

قالت هدى : إنهم ينامون ، ولكنهم أصبحوا الآن مجانين .

- لماذا ؟ ماذا حدث ؟

– إنها مأساة حقيقية تهددهم

– مأساة ، ما هي يا عزيزتي ؟

قالت هدى : سيدي يريد أن يتزوج .

وانفجرت إمتثال ضاحكة ، ضحك هستيري هزها بعنف ، قالت :

– إنه شيء غريب ، العجوز حافظ يريد أن يتزوج ، وما رأى رفيق ؟

– إنه هناك يتصدى له بصفة خاصة ، ليس أمامه سوى السهر طيلة النهار ، ولم يعد ينام ، ينتظر .

– ماذا ينتظر ؟

– ينتظر مجئ الحاجة زهرة ، الخاطبة ، يريد أن يمنعها من رؤية سيدي ، فهي التي تتولى شئون هذا الزواج .

بدت إمتثال كأن فرحا مجنوناً إستبد بها ، رمشت بعينها ، وضربت بيديها وتقلبت على السرير وقالت :

– رائع ، إذن فهم متيقظون ، و ينتظرون ، ألا تعرفي الى أي حد يسعدني هذا ، أريد أن أراهم هكذا .

قالت هدى : هذا ليس مسليا بالنسبة لي ، فكل هذه المصيبة تقع على ظهري .

قالت إمتثال : أرثى لحالك يا عزيزتي ، لقد نسيك انك يجب أن تتحملي كل هذه الفواحش .

أمسكت مشطا كان على التسيجة وبدأت تمشيط شعرها ، ذلك الشعر الأسود الطويل الذي يترك حتى أسفل ظهرها ، مقسم الى قسمين ثقيلين ، وكم تعني به إمتثال دائما .

وتعرف عمق عطرها الخفي الذي يغرق رغبة الأجساد البكر لربائنها الشباب ، إنها عاهرة من طراز خاص ، ومهنتها لا تتبعها كثيرا ، ولا تسبب لها النفور، فعند الإتصال بأحد عشاقها الشباب لا تحس بأي إشمزاز، بل يتسلان بجهلها ، وحياتها في البحث عن المتعة ، لقد تعلمت من العديد منهم كيف تمارس الحب ، وكانت فخورة بذلك ، يتناها قلق الأم حين يتقدمون في ممارستهم ، فقد كان رفيق هو الرجل الوحيد الذي أحبه ، وهو أيضاً الذي كشفت له عن عبق جسدها السري ، والتجربة المتمثلة في مهنتها ، أعتقدت أنه سيظل يحبها دائما ، وأن فشلها سوف يشفي ببطء ، ثم جاء الطفل .

نام الطفل على ركبتي هدى ، شاحب الوجه ويلمع تحت ضوء المصباح ، نظرت إليه بابتسامة مريرة على شفيتها المصبوغتين ، تخاف أن يكبر ، ولا تستطيع أن تحتفظ به في غرفتها ، أحيانا عندما يبكي ، تضطر أن تمسكه بين ذراعيها ، وهي تتلقى مداعبات زبونها ، عليهما أن ينفصلا يوما ، أو أن يقيما في مكان آخر ، في مسكن أوسع ، انه مصدر قلقها الوحيد ، سألت هدى :

- إذا كنت تنتظرين أحدا ، فأطلي مني أن أذهب .

قالت إمتثال : لا ، أنا لا أنتظر أحد الآن ، يمكنك البقاء ، إحكي لي .

- ماذا تريدان أن أحكي لك بعد هذا ؟

- أخبريني كيف حال سراج ؟ وهل هو مترجع من زواج أبيه ؟

- لا ، سراج لا يفكر سوى في الخروج للبحث عن عمل ، وأنا خائفة عليه .

- لماذا تخافين ؟

- لا أعرف ، هل تعتقدين أنهم مخلوقون للعمل ؟

- أعتقد إنهم غير قادرين ، هيه ، لعلك تخافي من فقدانه ، لكن سرعان ما ستمر هذه الفكرة .

قالت هدى : يسمع منك ربنا ، فأنا قلبي مهموم .

قالت إمتثال : نعم أعرف هؤلاء الناس ، أعرف أنهم قادرون ، ويفضلون التبول على بنطلانهم بدلا من ان يربطوا أزرارها ، وهذا يتعبهم كثيرا .

قالت هدى : مثل جلال ، انه هكذا تماما .

علقت إمتثال : نعم أنا أعرفه ، رغم أنني لم أراه ، فحين جئت لأسكن هنا ، كان مدفونا في النوم ، يتصرف كأنه سيدهم ، ورفيق معجب به كثيرا .

قالن هدى : انه مدهش ، عندما أراه ، تتأبني الرغبة في النوم ، وبشكل تلقائي .

وما أن جاءت سيرة جلال ، حتى فتحت فمها ، وتشاءبت ، بدا الطفل ثقيلًا على ركبته ، وأحست بالتعب من مجهود النهار ، فارتجفت أعضائها ، واختلطت رائحة مصباح الغاز بالدخان ، والمساحيق التي تثقل جو الغرفة ، أحست هدى بأنها تتزلق في نعاس فوق السرير الكبير ، أما مرآة الدولاب فتعكس عليها حركات إمتثال ، كل هذه الاجواء الماسخة السخيفة بدأت تدير رأسها ، رأت جسد إمتثال الرشيق ، وهو يتمدد على ألواح السرير الوردي ، ظهرت إحدى ساقها من بين قميصها ، فلمعت في ضوء المصباح الخافت ، وكأنها قمة فحشاء الجسد .

أحست هدى بجو الفجور يفوح المكان ، وسمعت تغنيجة حب تنفك في صمت ، بدا هذا المكان بالنسبة لها ، لأول مرة غريبا ، وفاسدا ، إهتزت ، ودعكت عينيها وسألت بصوت مخنوق :

- إذن فأنت لا تريدين رؤيته ؟

- عمن تتكلمين ؟

قالت هدى : أتكلم عن رفيق ، انه يزعجني بهذا الموضوع ، يعتقد أنها غلطتي لو رفضت رؤياه .

صاحت إمثال : أخبريه أنني لن أراه أبدا ، وأنني عنه بكل روحي ، لبيق بين أسرته العفنة ، آه ، أنت لا تعرفين كبريائه ، إنه ينفجر بالغرور ، هل تعرفين أنه أخبرني يوما انه عندما رأى جنازة فإنه يتمنى لو كان هو الميت ، ياللفخة الكاذبة ، هل يمكن أن يكون الإنسان مغروراً الى هذا الحد ؟

قالت هدى : أخبرني أنه يريد أن يفسر لك بعض الأشياء .

— ماذا لديه ليفسره لي ؟ لا أريد تفسيراً ، يكفي أن أعرف أنه غارق الآن في مآسة ، آه سوف نضحك كثيراً ، أتمنى أن يوزع الملبس في عرس هذا العجوز ، لا تنسي أن تحضري لي نصيي .

بدت إمثال سعيدة ، وهي واقفة عند طرف السرير ، وكأنها ضحية ، أستبدت حفنة ألم بملامحها الملهبة من المساحيق ، لقد حان وقت إنتقامها أخيراً ، فكشفت عن صدرها وانفجرت في ضحك مجنون .

أزعجه النداء الدائم والمختال لبائع الذرة :

— ذره مشوي ، كل الذرة المشوي .

هؤلاء الباعة المتجولون هم أكثر ما يكره في العالم ، فهم ينادون على بضائعهم في آذان المارة ، وكأن الأمر يتعلق باختراع جديد ، لكن هذا لا

يزال أكثر نبلا من الآخرين ، تبدو عليه ملامح العمال وهو يسحب أكواز الذرة المشوي ، يا له من غبي ، سمع رفيق نداءه ينطلق من مسافة تملأ الليل ، أحس خلفه بزعيق الرجل الصارخ ، وكي يتخلص منه تعجل الخطي ، الطريق خاو الآن ، لكنه أحس بوجود بعض الحيوانات الضالة التي تتأهب للموت ، وكأنهم يرقبونه خلف جدران المنازل ، تكمن خلف أشواك الحقول المظلمة ، وحتى في السماء الداكنة أعلى رأسه .

لا يزال رفيق يتحرك منذ لحظة تحت نافذة إمتثال، لم يجروا أن يصعد ، خشى أن تكون مع أحد الزبائن فهو لم يعيش مثل هذه اللحظة من الحزي ، أحس بغيره قائلة وهو يفكر فيها وهي تمارس الحب، هاجمته مناظرها وتوترت تحت رزح ذكرياته الحية ، ألقى نظرة نحو الباب الكبير واستعاد مظهره المكفهر ، فالمتزل موجود فوق ظليلة ولا تنعكس منه الأنوار ، فبدا كأنه غارق في الليل بواجهته الكئيبة ، وجدرانه ، لم يستطع رفيق أن يبعد عينيه عن البال الكبير ، فقد دفعته رغبته أن يأتي إلى هنا حيث توجد إمتثال ، وتغيرت الى رغبة جسدية ، فجأة حدث تمزق ، وسطع ضوء في الظلام ، فقد مرت سيارة بسرعة مخلفة غبارا من الرعب، أحس رفيق بأن شيئا ينهشه، وترنح كرجل سكير ، لم يحتمل أي صدمة ، فرأسه تؤلمه، وأعصاه توجعه .

أسرع نحو مكان يمكنه الجلوس فيه ، خاشيا أن يسقط فوق الأرض .

كان بالمقعى الذي دخله بعض القذارة بدت تحت ضوء مصباح الغاز ، سبحت بعض الموائد المترنحة في هذا الضوء الصاخب ، جلس صاحب

المقهى خلف قمطره ، رجل في الثلاثينيات من عمره ، شاحب الوجه ، فوق أذنه اليمنى وشم عصفور ، إنشغل في إعداد أشياء تبدو غير ذات أهمية ، لم يكن هناك أحد في المقهى ، سوى امرأة عجوز تملأها التجاعيد ، وقد غطت راسها بحجاب أسود ، شغلت مائدة قريبا من القمطر ، والقى على الرجل نظرة بعينيه المرتبكتين .

طلب رفيق قهوة ، وانتظر شاردا حتى يستعيد قوته ، وأن يتخلص من جنبه ، لقد خرج بنيه أن يرى إمتثال ، ولم يجرؤ على الصعود إليها .

لماذا لم يصعد عند إمتثال ؟ لاشك أن رغبته فيها تمنعه ، وحين خرج من المنزل ، كانت رغبته في الخلفية تماما ، أراد فقط أن يتحدث إليها ، من تحت نافذتها ، وفكر في أنها تستقبل زبونا ، وأحس بالدم يغلي في عروقه ، ولم تنطفئ رغبته فيها ، كانت قريبة منه ، وتسري فيه حرارة جسدها ، أحس أنه مطارد من نداء الرغبة القديمة .

وفي هذه اللحظة فوجئ بلعبة غريبة .

تكلم صاحب المقهى مع المرأة العجوز الجالسة على المائدة قريبة من القمطر ، لا شيء غريب فيه ، فجأة ، غير صوته وحركاته ، وبدا كأنه شخص آخر وللحظة طويلة ، ثم تبادل الدور يبدو هو أولا ، ثم يتحول الى شخص آخر ، الشخص الآخر هو نفسه لو صوت علامات محددة تماما ، تعرف عليه بسرعة بمجرد دخوله في المسهد ، دارت اللعبة في احتفالية غريبة ، دون أن تفسد سحرها أي أمور غير حقيقية .

بدا رفيق مندهشا لهذا الغموض ، ثم عاود طلب القهوة ، جذب إنتباه الرجل وهو يطرق على المائدة ، لوح له الرجل برأسه ، كأنه يبين له أنه قد فهم .

وبعد لحظة ، أحضر له القهوة ، نظر رفيق الى الرجل بعينين يملأوهما التساؤل ، قال الرجل :

– أيوه هكذا ..

سأل رفيق : ماذا تقصد بهذا ؟

وضع الرجل أصابع فوق شفثيه وهو يقول :

– هذه المرأة أُمي .

قال رفيق : وماذا ؟

قال الرجل : إنها مجنونة .

قال رفيق : فهمت ، ولكن لماذا تمثل هذه الملهاة ؟

قال الرجل : ليست ملهاة ، إسمع ، إليك الحكاية ، كان لي أخ مات في السنة الماضية .

وأُمي لم تصدق هذا ، فأصيبت بالجنون ، وحتى لا أحزنها فأني أتصنع صوت وسلوك أخي ، وهكذا فإنها تصدق أنه حي وهي تراه .

قال رفيق : يالها من حكاية !!

قال الرجل : نعم ، حكاية قذرة ، وهذا يتعبني كثيرا ، خاصة مع العمل الذي أؤديه ، ففي كل مرة تأتي لترايني ، أضطر أن أوزع نفسي على هذه الاصوات .

قال رفيق : كم أرفق بك !!

قال الرجل : وهذا يجعلني في حاجة أن أتكلم الى أي أحد ، أنت لا تعرف أي أسى أنا فيه .

قام رفيق وخرج من المقهى ، وقد أثر فيه ما رآه لتوه ، فالجنون الذي يصيب البشر لم يعد يدهشه ، فقد عرف العديد من النماذج ، ولقد كان صاحب المقهى أيضا أكثر جنونا من أمه .

إنهما مجنونان ، لا يوجد أي عزاء فوق الأرض ، لذا هرول رفيق الى بيته .

الفأر الآن تحت السرير، سمعه جلال يخربش أطراف
الباركيه، ولم يجروء على الحركة ، كما لم يجروء أن يفتح عينيه
ن برد العرق فوق جسده ، وأحس به ينسال في خطوط
رقيقة بطول أعضائه ، هذا الفأر يحجى كل يومخ لينتزع من
نومن ، انه فأر عنيد ، يلف في دوائر ، ثم يروح يجري من
ركن لآخر من الغرفة ، تاركا وراءه أصواتاً مسموعة ،
أحس جلال الغارق في النوم بإشتمزاز وأنه على وشط أن
يقرض جلده .

رفع الغطاء ونظر حول السرير ، لم يكن رفيق هناك ، ترى أين يمكن أن
يكون ؟ لقد أصبحتا سخرية في هذا البيت ، ماذا يدفعهما للبقاء هكذا
متيقظين ، ضائعين في عبث لا طائل منه ، وكأهما في نهاية العالم ؟ دفعته
هذه الفكرة للإبتسام ، ولكن هل هي نهاية العالم حقا ؟

تدفق نور في أعماقه : زواج أبيه ، لقد قرر أبوه أن يتزوج فعلا ، أما
هو فلم ينم منذ أيام ، ولا يعي شيئا ، كيف يمكن أن تحدث مثل هذه
الكارثة ؟ سيكون هذا بؤسا لا شفاء منه ، يجب أن يمنع هذا الزواج بأي
ثمن ، وأن يتصرف بكل سرعة ، ينصرف ، أحس جلال بهذه الفكرة عبر
تشنجات جسده المؤلمة .

أحس بالتهدد ، كيف لم يخمن تلك المأساة الحقيرة التي تحتفي وراء
هذا الزواج ؟

فوجود امرأة في المنزل سيقرب حاله النوم السائدة منذ قديم الأزل ،
فكر مرة أخرى أنه يجب أن تبتعد هذه الكارثة ، من الأفضل أن يموت
أبوه ، ولكن هذه المبادرة لم تعجب جلال كثيرا .

فموت أبيه سوف يحدث تعقيدات من نوع آخر ، غير مريحة ، وأكثر
سرعة ، أولا ستأتي النائحات اللاتي لن يفوقن إزعاجه ، بصرخاتهن
النسائية النارية التي ستملأ البيت لعدة أيام .

ثم عليه أن يقوم ، ويستقبل المعزين ، ويمشي في الجنازة حتى يتم
الدفن .

لا ، من الأفضل ألا يموت أبوه ، يجب أن يجد وسيلة أخرى ، أحس
جلال أن فكرة هذا الزواج سرعان ما تسبب له الإرتباك ، وتصور نفسه
في قلب الخطر فلا يعرف كيف يتصرف ولا أحد هناك لينقذه ، تذكر انه
كلف رفيق ان يتولى هذه المهمة ، ولهذا فرفيق ليس فوق سريره ، آه ،
ياللصبي الشجاع !! لعله سوف يغتال الحاجة زهرة ، فجلال يثق به تماما ،
لقد كاد ان يصبح مهندسا ، ولديه معرفة تقنية بالغة العمق ، أحس جلال
بهدوء أكثر ولكن النوم لم يأت مرة ثانية .

ترى كم الساعة الآن ؟ على كل حال ، فالفجر لم يحن بعد ، لم يتذكر
جلال أنه سمع عربات قمر ، تلك العربات التي تأتي من المصنع القريب ،

وتنقل الطوب الأحمر الى المدينة ، إنها تمر بشكل منتظم فوق الطريق ، محدثة ضوضاء شديدة تهر المتزل من أساسه ، توقظ جلال في كل مرة تحت تأثير الكارثة ، لا يمكن أن يمنع نفسه من التفكير في الرجال الذين يقودون العربات ، يتساءل دوما في معاناة عن أي معجزة توقظ هؤلاء الرجال في الفجر للذهاب الي العمل ، أنه شيء لم يفهمه جلال بعد .

بدا الفأر الآن وكأنه مصاب بحمى ، فجأة راح ينخر ، وكأنه يبحث عن مخرج ، سمعه جلال ، توقفت أنفاسه ، والغطاء يغطيه حتى الجذع ، أحس بالخوف وانه يجب أن يغادر السرير ، فهذا المنظر يسبب له الجنون، أراد أن يشعل الضوء ، ولكن كي يصل الى مفتاح الكهرباء فعليه أن يبذل مجهودا خارقا ، تلملم في غطاءه ، وحاول أن ينسى كل شيء ن وأن يستكمل نومه .

أحس بشخص ما على مقربه منه ، فبوغت :

– هل أنت يا رجل ؟

كان العم مصطفى واقفا على مقربة من السرير ، يرتدي ملابسه كالعادة ، ويضع طربوشه على رأسه ، سأل جلال :

– هل ستخرج

قال العم مصطفى : لا ، لن أخرج ، أنا قلق

قال جلال : أنت ترتدي ملابسك كأنك متأهب للخروج دوماً ،
وهذا الطربوش ، كيف يمكنك أن تتحمله على رأسك ؟ أليس ثقيلاً ؟
قال العم مصطفى : الأمر ليس بهذه الصورة ، أرجوك ، استيقظ لحظة .

قال جلال : يمكنك أن تقول أنك محظوظ ، لقد إستقيظت ، ماذا تريد ؟

قال العم مصطفى : أنا قلق .

– لماذا ، ماذا هناك ؟

– حسن ، لقد خرج أخوك رفيق منذ المغرب ولم يعد .

سكت العم مصطفى ونظر الى جلال ، ومن الباب المفتوح ، كانت السهرارية تضئ الممر وقد سربت شعاعاً من الضوء ، في هذا الضوء الوحيد ، بدا جلال شاحباً ، وكأنه جثة ، تراجع العم مصطفى خائفاً ، وظل فوق سرير رفيق الخالي ، وأطلق تنهيدة أعمق من المعتاد ، قال جلال :

– انت قلق بلا سبب ، كم الساعة ؟

قال العم : العاشرة .

قال جلال : وماذا يعني ، أعتقدت أن الوقت أكثر تأخراً .

قال العم : هذا ما يقلقني ، فهو لم يعتد الخروج وأنا لا أفهم .

قال جلال : ربما صحبه سراج ليبحث عن عمل .

قال العم : مستحيل ، رفيق لا يفعل هذا ، فهو لم يبحث قط عن عمل ، ثم أن سراج في غرفته .

في الحقيقة لم يكن القلق الذي ينتاب العم مصطفى سوى حجة للثرثرة مع جلال ، انه في حاجة للكلام مع شخص ، تحرك في المنزل ، هذا الصمت المميت يقهر روحه ، ووعيه يؤلمه .

فصورة بطن الغسالة المنفوخة لم تتركه أبداً ، وهو لم ينجح في أن يتزعجها عن ذاكرته ، انه يبذل أقصى ما لديه يوما وراء يوم ، حاول العم مصطفى أن يدافع عن نفسه ، هذه البطن المنفوخة لحياة غامضة تحطمه ن وتخنقه ، حدث شيء غريب في داخله ، راح يفكر في الطفل ، فهذه البطن كانت تحمل طفلا منه ، وهو لا يشك في هذا ، ترى ما مصير هذا الطفل ؟ إنتاب العم مصطفى شعروا بالندم ، فوجوده معلق بنقطة محدودة، غنها تتملكه بقوة خلايه ، بمكنه أن يقضي ساعات فراغه لتعميق إحساسه بالندم ، أحس شبابه يعود به :

– إذن ، أليس لديك فكرة أين يمكن أن يكون ؟

– يا عم مصطفى ، ليس عندي فكرة ، ألا تعرف أنت أين وضعته ؟ أنا قلق ، فأتركوني في حالي .

- لا تغضب يا بني .

- هناك أيضا هذا الفأر اللعين ، لقد إستيقظت بسببه .

- هل هناك فأر في هذه الغرفة ؟

- نعم ، انه هناك يقرض شيئا لا أعرفه .

حرك العم مصطفى ساقيه بشكل غريزي أسفله ، والقى نظرة خائفة على الباركيه .. وقال :

- قلت لهدى أن تضع مصيدة .

قال جلال : ولا يهملك ، أنا لا أريد مصيدة ، فربما أشتبك فيها .

وران صمت ، حاول العم مصطفى أن يسمع صرير الفأر ، نظر إلى خط الضوء الداخل من الباب ، إنها وسيلة الإنقاذ الوحيدة ضد الخطر ، ولكن ليس هناك أي صوت ، رفع عينيه ونظر الى جلال في الظلام ، ورأى وجهه يلمع بإبتسامة كثيبة ، سمع ضحكة ساخرة :

- يا عم مصطفى ، أعرف أين ذهب رفيق ؟

- أين هو ، يا بني ؟

- ذهب يغتال الحاجة زهرة ، انه ولد شجاع ، يريد أن ينجبنا هذه المآسة الكبرى .

- أسكت ، يا جلال يا بني ، أنت تثير دهشتي ، لأنك ولد عاقل ورزين ، وها أنت تتصرف بحدة .

- هكذا تكون أمور الزواج .

- سوف يتزوج أبوك ، وهذا حقه ، ولا يمكننا أن نمنعه .

- وماذا يمنعك من النوم يا نبي ؟

- يا عم مصطفى ، لماذا تتغابي ؟ فالطفل يكاد يفهم هذا الأمر ، كيف يمكننا أن ننام في هدوء وفي البيت امرأة؟ امرأة تروح وتحجى طيلة النهار ، وترتب كل شيء حولها ؟ تود أن يكون كل شيء مرتبا ولامعا كي تعجب الجيران ، فتبدأ بان توزع علينا الخدمات لأن الصغيرة هدى لن توفي إحتياجاتنا ، تخيل يا عم مصطفى خادم في البيت ، كم أتأوه من الفظاعة لو أخذنا النسائب في الحسبان ، سيأتون لزيارتنا ، وعلينا أن نقوم ونرتدي ملابسنا كي نستقبلهم ، وربما ستضطر للكلام معهم ، أسألك أي حياة ستكون ؟

- أنت تبالغ يا بني ، ثم أن هذه مشيئة أبيك ، فهو السيد ، وفيم بعد، لن تشعر بالغضب حين تكون هناك امرأة في البيت ، الحياة ستكون أفضل .

راح العم مصطفى بتخيل صورة مبهجة للحياة عقب زواج أخيه الذي سيغير المنزل سوف تغمره سعادة من رؤية الناس ، وربما من زيارتهم .

- يا عم مصطفى ، تصورت أنك يمكن ان تكون خائنا ، لكن ليس الى هذا الحد ، إذن فأنت تريد رؤيتنا ونحن نموت .

- أهدأ يا ابني ، صدقني فليس في كلامي شيء مأساوي .

- دعني أنام ، من يعرف إذا كانت أيام نومنا أصبحت محسوبة ، لا أريد أن أقول أكثر من هذا .

- أرجوك .. لا تنام ثانية ، كلمني قليلاً .

لم يود الصعد الى غرفته ، فصورة الغسالة ذات البطن المنتفخة تنتظره بأعلى ، وهذا المساء ليست لديه القوة اللازمة لمواجهتها ، إنها أشبه بشيء يمزقه ، بجسد لم يلمسه الا بحذر شديد ، عليه أن يبقى لأطول وقت ممكن في ركن من الظل ، أمام كيان إنساني مشطور الى قسمين ، يكتفه النوم .

- إسمعي ، فلعل هذه الزيجة لا تتم .

قام جلال من سرير ه ، كي يتأمل من دهشه :

- وكيف هذا ؟

- بسبب الأليطة

- أي أليطة ؟

- اليطة أببك ، لنرى ؟

– هل لأبي أليطة ؟

– ألا تعرف ؟

– لا ، كيف أعرفه ، إنه خبر غريب ، أعرف انه مصاب بالسكر ،
أعتقد أنه مريض عابر ولا يعرقل زواجه .

– لا ، مرض السكر من إختراع الحاجة زهرة ، الحقيقة أن لأبيك
أليطة .

– هل رأيتها ؟

– مثلما أراك ، إنها ضخمة .

وران صمت شديد ، صاح جلال :

– إذن فقد تم إنقاذنا ؟

قال العم مصطفى : أعتقد

– حسنا يا عم مصطفى ، أشكرك على هذا الخبر ، يمكنك ان تذهب
الآن ، ويمكنك أن أنام .

قام العم مصطفى رغما عنه وتردد في الذهاب ، ولكنه سمع شيخير
جلال وفهم أن أرى محاولة غير مجدية ، وخرج من الغرفة مكتئبا .

غمره ضوء المصباح الكهربائي كأنه ماء بارد ، هب من مكانه وتوجه
الى سريره .

– هل أنت مجنون أن تشعله دون أن تخبرني .

– معذرة ، فأنا لا أجد ييجامتي .

انه رفيق الذي عاد ويرتدي ملابسه من جديد .

– هل قتلتها ؟

– من ؟

– بشرفي ، الظاهر أنك نسيت كل شيء ، أليس من الواجب عليك

أن تقتل الحاجة زهرة ؟ وأنا كغبي أعتمدت عليك .

– انا لم أنس شيئاً ، لا تقلق ، فسوق أقتلها يوماً ؟

تكلم جلال وقد إحتفظ بعينيه مغلقتين ، انه لا يستطيع ان يواجه

الضوء الشديد للمصباح الكهربائي ، بدا كأنه أعمى ، راحت يده

تطوحيان في الفراغ :

– أرجوك ، أطفئ هذا النور .

إنتهى رفيق من لبس ملابسه وأنسل في ييجامته ، وأطفأ المصباح

وتمدد على سريره وبكل برود قرر أن ينام .

– إسمعني ، لقد أخبرني العم مصطفى بخبر جميل .

سأل رفيق : أي خبر ؟

قال جلال بجرارة : خبر على جانب كبير من الأهمية لنا ، فأبوك لديه أليطة .

وتحرك رفيق ومال خارج السرير :

– هل أنت متأكد أن العم مصطفى لم يكذب عليك ؟

– لا أعتقد ، اخبرني أنه رأها ، وأن الزواج لن يتم .

قال رفيق بصوت حالم : إنه شيء جميل ، هل هي ضخمة ؟

قال رفيق : ليس تماما ، يجب أن أراقب الحاجة زهرة ، إنها خاطبة ملعونة ، ويمكنها أن تزوج مينا .

وناما في راحة بال ، وهما يفكران في أليطة الأب التي ستقذهما من الكارثة .

وقف سراج أسفل التل يرقب كل ما حوله ، إنه موجود في نفس الضاحية التي سبق أن رأى فيها الطفل يصطاد بالنبله ، فتأكد أنه سيراه يظهر خلف عيدان الذرة العالية ، إرتفعت أشجار الجميز أمامه عند طرف الممر ، وسمع صدادح العصافير وهي تقفز فوق فروعها ، طال الممر عبر حقول الذرة وبدت حافة الطريق ضائعة في ضياع بعيدة ، راح سراج يحدث من حوله أقل ضجة ، وألقى حوله نظرات زائغة ، إنه حزين لأن الطفل لم يظهر ، وعندما خرج هذا الصباح لمشاهدة المصنع الذي تحت التأسيس ، فكر فيه، وتأكد أنه يتصلعلط في نفس المكان .

إغتم لأنه لم يره ، فقد توهم ان الطفل يجب أن يكون هناك في إنتظاره، وأنه لا يستحق منه هذه الخيانة .

نظر حوله مرة أخرى ، ولكنه لم يرى أي أثر للطفل ، لا يعرف ماذا يفعل الآن ، فغياب الطفل نذير نحس بأن القدر يعانده ، وهدفه هو أن يجد الطفل وأن يتفق معه كي يصحبه الى المدينة ، انه يود لو ربط نفسه بذاته ، ويتذوق معه المغامرات المثيرة ، ولكن الطفل خذله ، وجال في

كل الطرق وحده وهو لا يخضى شيئا ، إنتابه حنين كالعقم وهو يتذكر لقاءهما الأول .

أصابه الملل وهو ينتظر ظهور الطفل بلا جدوى ، فعليه أن يذهب الى المصنع بإعتباره هدفه الأسمى ، نزل المنحدر وغاص عبر الحقول .

الجو صيف الآن ، والنهار حار وسراج يعاني من الصديرية الثقيلة ، فكر أنه يجب أن يغير ملابسه إذا إستمر في تكملة مسيرته ، وربما عليه أن يعتمد على النظارة الداكنة كي يحمي عينيه من الشمس ، فلاشك أن هذه الحرارة أفضل من فصل الشتاء المتقلب ، فهنا لا يتعرض المرء لاخطار المطر والريح ، فهو لا يرى السحب الثقيلة الحزينة التي تسبب الأسى والحزن ، أحس سراج بقوة المغامر تنتابه من أي وقت مضى ، بدا له أن دماء جديدة تسري في عروقه .

فالحياة في أسرته لم تعد غير محتملة ، ومنذ أن قرر أبوه الزواج ، بدا كأن شيطانا إستقر في الدار ، رقيق في حالة تأهب ، وجلال لم يعد ينام ، ومن المثير للرتاء أن يرى جلال قلقا هكذا ، إنه كيان آدني ، لذا فسراج يعاني من أجله .

رمى بأفكاره الحزينة وعجل خطاه ، هذا النور الذي يحوطه من كل الأركان فتح له أفقا لم يسبق له التفكير فيها ، تخيل نفسه متوجها بالفعل الى عمله ، إنه وهم جميل ، دفع سراج ، للإبتسام في سعادة .

وصل لاهثا الى قمة التل ، الآن ، يمكنه رؤية المصنع ، يبدو مثلما تركه وراءه في زيارته الأخيرة ، لم تحدث أي تغيرات في الجدران التي لم ينته بناؤها ، إنه نفس الخراب المفجع ، وبفس المنظر الإستفزازي ، رأي سراج أمامه رجلا ملتجيا قريبا من كانون يطهي عليه وجبته .

أحس سراج يصبص من الأمل ، وسرعان ما وضع في حسابه أن الرجل يمكن أن يكون حارسا وليس عاملا ، تساءل لحظة : هل يسأله عن موضوع المصنع ، سيعرف أخيراً لماذا لم ينته ، وعم إذا كان سينتهي ، فالرجل يجب أن يعرف هذا ، تردد سراج وهو يدلف في الطريق ، طريف يفصله عن الرجل ، شهد فيه حادث ، وتملأه المطبات ، إنه في قلب الخطر ، اراد سراج أن يعرف مدى إمكانية العمل في المصنع ، إنها فرصته الأخيرة للمعرفة ، للم شجاعته ، ونزل من التل ، وراح يدق فوق الأرض المتربة التي يقع المصنع وسطها ، وقد إرتفعت جدرانه التي لم تنته .

تقدم بصعوبة بين كومات الحجارة الضخمة التي تعلو الأرض فإصطدمت قدماه بالأخاديد ، أدرك أن الامر أكثر خطرا مما يعتبد ، فكاد أن يسقط أكثر من مرة ، بدا كأنه يسير في طريق بلا نهاية ، ثم توقف أخيرا ، انها أول مرة يرى المصنع قريبا إلى هذا الحد ، خاف من منظر الجدران التي تشبه محراثا يدفعه رجل ، رآها تتضخم أمامه ، وكأنه يدفع وجوده الآثم .

قفز سراج فوق حديد التسليح ووجد نفسه واقفا أمام الرجل ، تأمله للحظة في صمت .

- السلام عليكم .

رفع الرجل وأجاب بصوت أجش :

- عليكم السلام .

كان مشغولا يطهي الفول على الكانون ، انه رجل عجوز ، ملابسه مرتقة مثل زي شحاذ ، وقد وضع عصا طويلة قريبا منه فوق الأرض ، سأل سراج :

- هل انت الحارس ؟

قال الرجل : نعم ، وأنت ، ماذا تريد ؟

قال سراج : أعذرني ، أريد أن أعرف لماذا لم يتم الإنتهاء من هذا المصنع ؟

قال الرجل : الله وحده يعلم ، لقد طلب مني أن أبقى هنا ، ولا أعرف أكثر من ذلك ،

وظلا لحظة بلا كلام ، إنشغل الرجل بفوله ، قلبه بقطعة من الحديد الأبيض على شكل ملعقة ، إنطلقت رائحة الطعام وأغلق الرجل عينيه من

الرضاء ، نظر اليه سراج فرحا ، وقلقا ، فهو لم يعرف شيئا من هذا الرجل .

– إذن ، أنت لا تعرف شيئا ؟

سأل الرجل : فيم يهتمك هذا ، دع هذا المصنع في حاله .

قال سراج : حسنا ، أعتقد أنني يمكن أن أعمل به .

قال الرجل : هل تبحث عن عمل ؟

نظر الى سراج في قلق ، وتفصحه من أعلى لأسفل ، هز رأسه وأكمل:

– لا تبدو عليك هيئة العمال ، فالأفندية أمثالك لا يعملون في المصانع:

قال سراج : ليس هذا سبباً كافياً ، أستطيع أن أعمل جيداً ، لقد جئت مرات عديدة هنا .

ولديّ شوق كبير .

ورغم أنه شديد الإرهاق فقد جاهد أن يبدو متماسكا وصلبا ، انه يريد أن يكسب إحترام الحارس ، تخيل أن الرجل يمكن أن يوصي عليه مدير المصنع .

– لا يابني ، إنه عمل لا يليق بك .

وتم تسخين الفول ، رفعه الرجل من فوق النار ، وقبل أن يبدأ في الأكل ، قال بكل أدب :

- تفضل .

قال سراج : أشكرك ، لست جوعانا .

وجلس على حجر كبير ، أمام الرجل ، كانت الشمس تضيئ الريف كله ، فالوقت ظهرا .

وسراج يشعر بالحر والعطش .

- هل أنت هنا منذ فترة طويلة ؟

قال الرجل : منذ بضعة أشهر ، ولكنني لن أبقى هنا طويلا ، إنه عمل شاق ، يجب أن تحرس دوما هذه الحجارة ، ولتلك الأكوام من الحديد ، فهناك لصوص يأتون لسرقة كل شيء وأنا مسئول ولعلك تفهم.

قال سراج : إنه عمل شديد الأهمية .

قال الرجل : إنه بالغ الأهمية ، وأنا أهتم به وحدي ، يلزمه على الأقل أربعون شخصا لمراقبة هذا كله .

وإنتابت سراج فكرة مفاجئة ، فهو يمكنه ان يساعد العجوز في عمله، سيكون هذا عملا عليه القيام به أثناء إنتظاره وانتهاء المصنع .

- هل أنت في حاجة الى مساعدة ؟

قال الرجل : طبعاً ، على الأقل أربعون شخصاً .

قال سراج : أحب أن أعمل معك ، ما رأيك ؟

– هل تريد أن تكون حارساً ؟

– نعم أستطيع أن أساعدك في حراسة هذه الحجارة .

– بشرفي أنت صبي غريب ، وما رأي أمك ؟

– أمي ماتت ، وما كنت لتقول شيئاً .

– ومع ذلك لا أستطيع ، فهو عمل لا يناسبك .

– أرجوك وافق ، فلدي الرغبة في العمل .

– لماذا ؟ هل يضربونك في البيت ؟

قال سراج : لا أحد يضربني ، بل أنا الذي أريد الذهاب ، لقد قررت

أن أعمل .

قال الرجل : سوف تجعل أهلك يبكون ، ستكون هذه مصيبة سوداء

عليهم .

توقف الرجل عن الأكل وبدا كأنه يفكر ، فهذا الصبي يبدو له غريباً،

وبدأ يشك في كونه لص يريد أن يستعلم كي يأتي في الليل مع رفاقه

للسرقة .

أما سراج فقد إمتلأ بالأمل وانتظر قرار الرجل .

– إذن فأنت لا تريد ؟

قال الرجل بصوت ملى بالتهديد ، لا ، لا أريد وأنصحك أن تمشي بسرعة .

إرتبك سراج ، ولم يفهم شيئاً .

– لماذا غضبت ؟ سامحني إذا كنت قد ازعجتك .

– اجل ، أنت تزعجني ، اذهب ولا تعد هنا ، وإلا طلبت لك البوليس .

قال سراج مبغوتا : البوليس ؟

كرر الرجل : سأطلب البوليس .

وأمسك عصاه واستعد لاستخدامها ، وبدا شريراً ، وسال لعبه ثم سقطت حباب الفون على لحيته ، تردد سراج لحظة ، ثم رحل مغموما ، دون أن ينظر خلفه .

لقد انتهى كل شيء الآن ، ولن يعمل أبداً في المصنع ، حتى هذه الفرصة الأخيرة قد لفظته والحادث الذي جرى مع الحارس العجوز وضع حداً لأوهامه ، لا يستطيع أن يتأمل إختيار حلمه سوف تكون للحياة وتيرة واحدة وماسخة ، وامام هذه الفكرة التي تنتابه في اللحظات الحاسمة

وجد سراج نفسه وقد فقد توازنه ، فهذا المصنع قد لعب دورا هاما في حياته فهو لا يكف عن التفكير فيه كل يوم ، والآن وجد كل شيء يضيع فجأة ، وليست لديه أي حجة كي يقضي على كسله ، لا يستطيع أن يغش نفسه أكثر من هذا ، وصل إلى الطريق ، وسار منخفض الرأس ، يردد النداءات الحادة للبائع المتجول الذي يقاطعه ، وقد هرولت الخادמות نحوه للشراء وهن يثرثن بأصوات حادة مبهجة ، مردون أن يتوقف أمام محل أبو زيد ، فهو ليس مؤهلا كي يواجه مصيبته ثم أن أبو زيد كان نائما ، مكوما على عتبة محله ، ولم يثر أي إنتباه له ، إنها مصادفة سعيدة .

فسراج لا يحتمل مقابلة بائع الحرنكش ، وليست لديه أي فكرة جديدة يقترحها عليه ، أحس أنه مخبط ، وعلى بضع خطوات رأى هدى بين مجموعة الخادومات واقفة قريبة من عربة بائع اللبن لحتته الفتاة ، فجرت نحوه ، وهي تحمل حقيبة ثقيلة ممتلئة ، قال سراج :

– آتسوقين في مثل هذه اللحظة ؟ ستأخرين على الغذاء ؟

قالت هدى : ليست غلطتي ، فسيدي نائم ، وليس معي نقود ، لا يجب أن أنتظر حتى يصحو .

قال سراج : أنا جوعان جدا ، هيا ، عودي إلى المنزل ،

قالت هدى : سأعود معك .

لم تكن أمامه وسيلة للتخلص منها ، رآها سراج بالغة السعادة لدرجة أنه لم يجرؤ أن ينظر إليها ، أمسكت يد سراج ، وسارا متعانقي الأيدي كعاشقين ، أحس سراج بالخجل من الناس الذين يرونه ، ولكنه لم يسحب يده ، وجد أنه من الرائع أن يفعل ذلك أمام أشخاص يعرفونه ، نظرت إليه هدى وهي تبتسم .

– أريد أن أقول لك شيئا .

– ماذا ؟

– كنت فهورة هذا الصباح .

– آه ، مم اذن أيتها الغبية الصغيرة ؟

إبتلعت هدى إهانتها وقالت بكل جدية .

– قبل أن أذهب الى السوق ، تزهت على الطريق مع طفل إمتثال ،

هل تعرف ماذا إعتقد الناس ؟

– لا .

– اعتقدوا أنه ابني ، ابتسموا للطفل ونظروا لي بإعجاب ، وكنت

شديدة الفخر .

– كم أنت غبية ، يا لها من فكرة ، هل تقضي وقتك في التفكير في

هذا بدلا من الإهتمام بشئون البيت ؟

– لست غبية ، أنا بين كبيرة ، فتاة لا تفهم شيئا .

إنسحبت من يد سراج وسارت وحدها وهي تحس بالغیظة .

قالت هدى : سترحل وتتركني وحدي .

- نعم ، يجب أن أرحل إلى المدينة ، لا أستطيع البقاء في هذا المنزل .

لقد قرر سراج هذا الصباح أن يرحل إلى المدينة ، منذ أن فقد الأمل في المصنع ، حدث فراغ ضخم في حياته ، وعليه أن يملأ هذا الفراغ ، فقد أعطته زيارته إلى المصنع الذي تحت التأسيس والإحساس بأنه إستكمال الشعور بالشجاعة التي يستمد منها بعض قوته المعنوية .

ولكن هذا الهم قد تبدد تماما ، ووجد نفسه منجذبا من جديد إلى عالم النوم ، فلم يعد يستطيع مقاومته ، وبشكل قدرتي ، ترك الجراثيم تغزوه من كسل لا يرحم ، هذا الجو من اللامبالاة السائدة الذي تعيش فيه أسرته يسمعه كل يوم أكثر ، وهكذا قرر أن يرحل بأقصى سرعة ، وإلا إفتقد روح المغامرة خلال بضعة أيام ، قالت هدى :

- إذا فعلت هذا فستجعلنا يائسة .

- إسكتي يا غبية ، وإنشغلي بعملك .

- أين ستذهب ؟ يا الله ، سوف تضيع نفسك .

– هذا لا يعنيك ،

كان واقفاً أمام النافذة ، يحاول أن يبدو شريراً ويحس أنه يكاد أن يضعف بسبب هذه الفتاة المتعلقة بالحب الأكثر طلاوة من النوم ، من الصعب ألا يسمعها ، وعليه أن يقول لها شيئاً .

وألا سوف تهيج كل المترل .

سمعها تتحب وهي تستدير ..

– لن تجلبي النائحات .

مسحت دموعاه ، وإقتربت منه ومدت يدها إليه في توسل :

– أبق ، ولا تذهب .

– إسكتي يا بنت الكلية ، سيسمعنك ويأتون صارخين بدورهم ، كم أنا آسف أن أخبرتك أنني سأرحل .

– إذن خذني معك .

– انت مجنونة ستكون فتاة مثلك عبئاً ثقيلاً علي ، يجب أن أبحث عن عمل .

– لا يمكنك أن تعمل ، انا أعرفك ، سأعمل من أجلك .

– لا تقولي مثل هذه الغباءات ، أنا مستعد لكل شيء من أجل ترك هذا المترل .

أدركت أنه قرر ، وأحسست بخوف متوحش ، فماذا تفعل لتمنعه من الرحيل ؟ انهما لا يجيدان أمور الإغراء الجنسي ، إنتابتها رغبة من الأمل فارتسمت عليها ابتسامة مأكرة فقالت :

- إذا رحلت لن يمكنك مداعبتي .

- لا أريد مداعبتك ، من أخبرك أنني أريد مداعبتك ؟ لدي شيء آخر يجب أن أفعله ، ألا تفهمين ؟

- ليس هذا صحيحا .

التصقت به ، وحاولت أن تثير فيه الرغبة ، لكنه بدا تائها ، ودفعها بقسوة بعيدا عنه :

- ابعدي ، دعيني .

وسقطت هدى على السرير ، وقد أذهتلها الصدمة ، ولكنها لم تكن قد صدقت بعد ، لقد فعلت كل شيء من أجل الاحتفاظ به ، وبحركة من يدها ، رفعت طرف ثوبها ، وكشفت عن وركيها ، وباعدت بين ساقيهما ، إنتظرت لحظة دام فيها صمت موتور ، ورأت نظراته المركزة عليها ، نظرة تائهة مليئة بالإرهاق ، إرتعدت من الخوف والوجدان .

- ألا تريد ؟

بدا عليه الجنون ، لم يفهم شيئا فيما يرديه منها ، همس بصوت بائس :

- لا لا أريد ، أود الرحيل .

أعادت ثوبها ، وقامت غاضبة واستعدت للبكاء من جديد ، وقالت :

- سأخبر سيدي ، سأمنعك من الرحيل .

- لن يمنعني أحد من الرحيل ؟

رآها سراج تخرج من الغرفة مضطربه ، سوف تخبرهم الآن ، سيأتون جميعا ليوبخونه أسرع في إرتداء ملابسه وتملكته الرغبة في أن يقاوم النصائح وكل الإغراءات بالتراجع .

كان رفيق أول من جاء ؟

- ما هذا ، هل سترحل .

- أجل ، قررت أن أبحث عن عمل في المدينة .

بدا رفيق مندهشا ، فقد إستيقظ لتوه ولم يفهم شيئا بعد ، لذا لم يستطع أن يدرك مدى جسامه الموضوع ، إنه أمر صعب ، أخيرا قال :

- هل معك نقود ؟

- ولماذا أفعل ؟

- أستذهب إلى المدينة بلا مال ؟

- أخبرتك أنني سأعمل ، وسأكسب .

- صبي مسكين ، تعتقد أنهم ينتظرونك ليقدمون لك وظيفة وزير .

- لا أريد أن أكون وزيراً ، ما الذي جعلك تتصور هذا ؟

- إذن ، ماذا تريد أن تكون ؟

- لا أعرف ، أعدك أن أكون هادئاً ، وأفكر أنني يجب أن آخذك معي .

كان رفيق نائماً على السرير ، يفكر في جسارة الموقف ، تخوف على أخيه من مضاعفة المأساة ، ففكرة الذهاب إلى المدينة للبحث عن عمل هي مصيدة شيطان ، إنها تحمل في داخلها جرائم عنقودية معقدة تقلق راحتهم في كل خلواتهم ، لن تنتهي بالسهر والانتظار ، الآن فإن التهديد بزواج أبيه قد إنهار بظهور الأليطة ، راح رفيق يعزي نفسه بهذه المحاولة الجديدة لإفساد نومه ، إنها دائرة جهنمية ، لن يخرجوا أبداً منها ، قال :

- إسمع ، لقد إكتشفت سرا .

سأل سراج : أي سر ؟

قال رفيق : أعتقد أن زواج أبيك لن يحدث ونحن محظوظون .

قال سراج : هذه الحكاية لا تهمني ، ماذا تريد مني أن أفعل إذا كان أبي سيتزوج أم لا ؟

قال رفيق : أيها الخائن ، لا يهملك ، أريد بكل بساطة أن أخبرك أننا لن نخاطر بلا سبب ، سيمكننا أن ننام في هدوء ، فالحياة ستكون جميلة .

صاح سراج : لكنني لا أريد أن أنام .. من قال لك أنني أنشد النوم ؟

قال رفيق : لا أحد ، ولكن كل الناس يحبون النوم .. أنت متوحش ولا أريد أن أضيع وقتي معك .

قال سراج : أنت تتعب نفسك بلا طائل .. يجب أن أذهب ، ولن يستطيع أحد إمساكي .

وسكت رفيق وغالبه النوم ، بقي صامتا لحظة ، ثم فتح عينيه قائلا :

– ألسنت خائفا ؟

– مم أخاف ؟

قال رفيق : من الترام ، إنها مرعبة ، إنها تدهس كل يوم آلاف الناس .

قال سراج : ليس هذا صحيح ، علينا أن ننتبه ولا نمشي على القضبان .

قال رفيق : ولكن هل يمكنك أن تأخذ حذرك ؟

– ولم لا ، لست أعمى .

قال رفيق : أنت أكثر من الاعمى ، يا الله ، ستتوه في الطريق ، ولن يمكنك العودة إلى البيت .

قال سراج : لا اهتم بالعودة ، من الافضل أن تذهب لتنام ، وفر قوتك لانتظار الحاجة زهرة ، لماذا تنشغل بأمرى .

– أنا لا أنشغل بأمرى يا غيى ، بل أسهر ببساطة على راحتنا ، فرحيلك سوف يولد حكايات لا تنتهى وأنا لا أريد حكايات ، يكفينى زواج أبىك ، ولم تتمكن بعد من منع هذه الفضيحة وأنت تريد أن تفجر أخرى ، بشرى سوف تقلبنى .

– آه هكذا تفكر ، كنت أعتقد أن ذلك بسبب مشاعرك نحوى
– أنت حمار .

كان سراج قد إنتهى من إرتداء ملابسه ، وراح يعد لفافته التى تضم بعض الأسمال ، إنها متاعه وهو فخور بها ، فهو الآن مستعد للرحيل .

فى هذه اللحظة ، سمعت زججرة فى الممر ، ظهر العجوز حافظ عند الباب ، يتبعه العم مصطفى ، وقد بدا الأمر مشيراً بالغ الأهمية .

– ماذا أسمع ؟ تريد الرحيل ؟

– نعم يا أبى .

– أين يا ابن الجاحد ؟

– إلى المدينة .

هتف العجوز حافظ : المدينة ، سمعته يقول أنه يريد الرحيل إلى المدينة ،
ماذا عملت يا ربي كي يكون لي ابن كهذا ؟ .

كان العم مصطفى قد وضع طربوشه على رأسه ، وبصوت جهوري
قال لرفيق :

– أبعد قليلا ، أترك أباك يجلس .

تراجع رفيق نحو الحائط ، جلس العجوز حافظ على طرف السرير ،
تحسس الأليطة الملتهبة بين ساقيه ، وتنفس بصعوبة قائلا :

– الآن ، إشرح لي ، ماهذا المجنون ؟

قال سراج : ليس جنونا ، افهمني يا أبي ، أريد أن أعمل .

– ليساعدنا الله ، تريد أن تعمل ، لماذا ؟ ماذا لا يعجبك في البيت ؟

– لا يمكن أن أقول لك يا أبي ؟ أنا في حاجة للذهاب .

– يا جاحد ، لقد أطعمتك وألبستك لسنوات ، وهذا هو شكرك .

– أي جحود في هذا أريد أن أعمل يا أبي ؟ يا له من أمر غامض !!

– تريد أن تلطخنا بالعار .

فكر العجوز حافظ في العار الذي سيسببه رحيل سراج للعائلة ،
وارتعد من زواجه ، فمثل هذه الفضيحة سوف تثير بالتأكيد حفيظة كل
المحترمين ، ولديه ما يكفي من المعاناة بسبب هذا المرض ، على الأقل فلن

يظهر في ليلة عرسه ، فرحيل الشاب وإصراره على العمل سوف يجلب لهم العار .

- يا أبي ، دعني أرحل ، أعدك أن أعود في المساء .. ولا تقلق .

- ومن أخبرك أنك يمكنك أن تعود ، هل تعتقد أنك سترجع حين تشاء ؟ وإذا قبض عليك البوليس ؟

سأل سراج مندهشا : ولماذا يقبض علي البوليس ؟

قال العجوز حافظ : بلا سبب .. هناك أيضا التزام ، والأوتوبيسات والسيارات وعربات الحنطور التي يركبها كل الناس ، ثم هناك الحكومة ، ألا تخاف من الحكومة ؟ .

- ماذا ستفعل الحكومة لي ؟

قال العجوز حافظ : الحكومة ضد المتمردين ، سوف يقبضون عليك .

قال سراج : ولكنني لست ضد الحكومة .

- لن تطلب الحكومة منك تفسيرات ، قلت لك أنها سوف تحبك .

- لأنني أريد أن أعمل ؟

- نعم ، إنما أفكار مدمرة ، كيف لا تفهم ذلك ؟ أتساءل من رسخ هذه افكرة في ذهنك ، لقد ولدت في أسرة شريفة ، فأرجوك لا تفسد سمعتنا .

قال رفيق : خاصة إننا نحتاجك هذه اللحظة .

بدا العجوز حافظ كأنه يجهل وجود رفيق ، النائم خلفه على السرير ،
أحس بالسخرية الكامنة وراء كلماته ، لكنه تماسك وأطلق بعض الحممة
المليئة بالتهديدات البعيدة ، انه لا يريد أن يفقد سيطرته على الموقف ،
يجب أولاً أن يفكر في منع سراج من الرحيل ، أما هذا الآخر فسوف
يصفي حسابه معه فيما بعد .

— لماذا أنت مستيقظ ؟ فالوقت لا يزال فجرًا .

إنه جلال الذي أيقظته الجليلة ، جاء ليعرف ما يحدث وهو يخشى من
أي مأساة ، قال رفيق :

— قرر أخوك أن يذهب إلى المدينة ليعمل .

قال جلال : صبي مسكين ، ليكن الله في عونته .

قال رفيق : الله مع الكسالى ، ليس لديه أي شيء يعمل مع خفافيش
العمل .

قال جلال : أنت على حق ، هلي يمكنني الجلوس ؟

نظر حوله ، رأى السرير مشغولا ، فقرص إلى جوار الحائط ووضع
رأسه على وركيه واستكمل نومه ، قال العجوز حافظ :

- بشرفي ، لقد نام ، يا جلال ، إصح ، كلم أخاك ، أنت الكبير ،
وربما يسمع كلامك فهو لا يسمعي ، أنا أبوه .

رفع جلال رأسه بتناقل ، وقد بدا عليه التعب :

- تريدي أن أتكلم إلي مجنون ، كفاني من المضايقات مع الفئران

قال العجوز حافظ : تعال إسمع سيرحل ، ليس لي سلطان على هذا
الصبي .

قال رفيق : دعه يرحل ، سيتعلم الحياة ، وسيأخذ درسا .

قام برقة ، وإستند على طوله ، ونظر إلى أبيه من بين ساقيه ، أراد أن
يتأكد من الأليطة كانت هناك ، بارزة تحت قميص النوم ، إنها أكبر مما
تصور ، إبتسم بحبث وتمدد ، وقال العجوز حافظ :

- سأفصل لك بدلة جديدة ، هل أنت سعيد ؟ من اليوم يمكنك
الذهاب إلى الحياط ، ماذا تريد أكثر ؟ أنت ترى انني أبذل ما بوسعي كي
أكون أفضل .

تآوه سراج : لا أريد بدلة جديدة ، أنت لا تفهمي أبدا يا أبي .

قال العجوز حافظ : كيف تريدي ان أفهمك ، يا جاحد ؟ هل أخرج
أنا ؟ هل أذهب إلى المدينة ؟ ماذا لديك أكثر منا ؟ يا الله ؟ أنا أسف أنني
أرسلتك إلى المدرسية ، أخبرني ماذا علموك في المدرسة ؟

لم ينبث العم مصطفى بكلمة ، لم يجرؤ أن يتكلم وإلا خافه الخوف ، في الحقيقة ، إنه الشخص الوحيد الذي يبارك هذا الرجل ، ويحس بفرحة غامرة في هذه المغامرة الموعودة ، فهو أيضا يريد الهروب من هذا البيت ، ويتغلب على النوم الذي أصبح كابوسا ، نظر إلى سراج بعينين مغروقتين بالدموع ، فلعله بعد قليل يمكنه الرحيل معه قال :

- يا عزيزي سراج ، إذا ذهبت إلى المدينة في أي وقت ، لا تنس أن تمر في شارع عماد الدين ، فقد كانت شقتي هناك .

قال العجوز حافظ : شقتك ، ما الذي جاء بسيرة شقتك ؟

قال العم مصطفى : فقد أردته أن يراها .

قال العجوز حافظ : هذه الأفكار في غير وقتها ، فأنت يمثل هذه الأفكار تدفع الطفل للرحيل ، هل هكذا تساعدني في واجبي ؟

قال رفيق : إنه يرد أن يعرفنا أنه كان يسكن في شقة جميلة ، يا عم مصطفى نحن نصدق كلامك .

قال العم مصطفى : أؤكد لكم أن هذه ليست أفكارى ،

قال العجوز حافظ: لنترك هذه الحكاية ، فأنت لست رحيمًا بأبيك العجوز .

قال العم مصطفى : أنت تجعلنا بائسين .

قال سراج : لست مسئولاً عن أن أجعلكم بائسين ، أريد أن أعمل .

قال العجوز حافظ : كيف لا يمكننا أن نكون بائسين ، ونحن نعرف أنك تعمل ، لسنا أنانيون مثلك ، فكن عاقلاً ، أنت تدفعني للبكاء .

وبدأ العجوز حافظ فعلاً في البكاء ، لقد قرر أن يجرب هذا كأخر وسيلة كي يطيعه ابنه وسرعان ما انضم العم مصطفى ولم تكن لديه أية صعوبة في أن يجعل دموعه تنسال ، لقد وصل إلى الطرف الآخر من المسافة ، ولا أحد يمكنه أن يفعل أكثر من هذا ، قال سراج :

— حسناً ، لن أرحل ، لكن أرجوك ، كف عن البكاء .

قال العجوز حافظ: أخيراً ، أنت الآن ولد عاقل وتجعل أباك سعيداً ، فتعال وقبلني .

قال العم مصطفى : الحمد لله ؟

إقترب سراج من أبيه وقبله على جبينه ، وأحس بالخجل والحياء ، نادى العجوز حافظ

هدى بصوت حاد أوقظ جلال :

— ماذا هناك ؟ أين نحن ؟

قال رفيق : لن يرحل .

قال جلال : أفضل ، إذن فقد إنتهت هذه القصة ، يمكنني العودة إلى فراشي .

كانت هدى تنتظر في المطبخ حتى تعلن نتائج هذه المفاوضات العائلية، وسرعان ما راحت تلمي نداء سيدها ، قال العجوز حافظ :

– تعالى هنا ، ستعدين لنا اليوم دجاجة للغداء ، هل سمعتين ؟

إستدار نحو سراج ، وأكمل :

– سراج يا بني ، لا تعلف ، سوف نذهب يوما إلى المدينة لنتزّه .

قال جلال : لا تضعني معك في الحسبان .

في ظلام الليل ، تنالاً المصابيح ، تاركة على طول الطريق مساحات واسعة من الظلال الميتة ، في كل مرة يصل إلى هذه الناحية ليلا ، يبطئ رفيق الخطى ويتحين لحظة ثقة ، أسرع بحثا عن وجه إمتثال ، لقد قرر أن يراها ، لم يتردد كما حدث في المرة الأولى ، فالرغبة التي تنتابه لم تترك فيه أي أثر من الندم والمرارة ، لقد ألقاها كأمر قدري ، إنه يعرف الآن أن رعدة الجسد التي نساها منذ زمن طويل تقوده تلقائيا إلى خنق سعادته ، فهو لا يود سوى ان يذوق طعم سعادة أبدية من النوم .

أحس أنه أكثر خفة ، تدفعه قوى هادئة رقيقة ، تبدو وكأنها تحولت إلى وسواس قدري ، إنه متمسك بهذه الحقيقة الأساسية المختبئة في أعماق حياته ، أن يبذل أقل مجهود ممكن ، تملأه بالكبرياء والإمتنان ، أحس بالإندفاع داخل إنسانية عفنة لم تكشف حقيقة طبيعته بعد ، فغباء البشر لا حدود له ، فإي حاجة لهم في الإثارة ، انهم دائما غاضبون ، وغير سعداء ، عندما تقف الحكمة الوحيدة أمام موقف لا اهمية له وسليبي ، فإن الأمر يبدو سهلا ، وأقل شخص يمكنه أن يفهم ذلك .

عندما فكر في المصير الذي سيلقاه لو رحل مع إمتثال ، تنتاب رفيق
رعشة رعب ، فلعله قد صار عبداً من بين العبيد ، وبسبب امرأة ، لأنها
ستجبره على العمل ، وستدفعه للعمل مع غبائها الأثوي العتيد غير
الواعي .

إنها المرأة التي سيرها الآن ، كي يشرح لها موقفه والمعنى الحقيقي
لهجرانه ، إنه لا يريد أن يترك فيما بينما سوء التفاهم القائم على حب
مسكين بئس ، يجب أن تعرف الحقيقة ، وضع رفيق في إعتباره أن يمشي
فوق طريق يقوده إلى إمتثال ، هذا التفسير النهائي سوف يخفف عنه عبثا
يثقل عليه نومه ، عليه أن يتخلص من هذا الحب الخيالي وأن يعطيها
صورة طيبة عنه .

كان في أقصى حالات الإحساس بنفسه ، خطأ بضعة خطوات مترددة
ثم وقف ، فهناك شخص ما يجري وراءه ، إستدار متحديا ، سمع ميمي
يقول :

– ناديتك مرارا ، ألم تسمع ؟

قال رفيق : لا ، يا لغرابة أساليك ، هل تتبع خطواتي ؟

قال ميمي : أبدا ، صدقني ، ببساطة كنت أنظر من نافذة المنزل
ورأيتك تمر ، فترلت وراءك.

تنهد ميمي ، بدا كأن مسا أصابه ، كان بلا سترة ويرتدي قميصا مفتوحا حتى الصدر ، وكل شيء في هيئته يخون وقاره ، فرحته الهذيانة الغامرة، قال رفيق بلهجة حادة :

- ولماذا تمشي ورائي ؟ ماذا تريد مني ؟

قال ميمي وهو يبدو كأنه يكن شعورا يغيظ رفيق : أريد أن أكلمك .
- تكلم ، فأنا أسمعك .

قال ميمي : هل يمكنني مصاحبتك ، مجرد لحظة ؟

تردد رفيق ، ولكن إحساس ميمي بالمتعة المتناهية كان أشد قوة ، إنه يعرف المشاهر التي يكنها له ذلك الشاب المراهق ، قرر فجأة أن يعامله معاملة غير طيبة ، فقال وفي نبرته بعض المكر :
- أنا سعيد لرؤيتك ، فصاحبني حيثما شئت .

قال ميمي : كم أنا محظوظ لأنني كنت أفكر فيك وأنت تمر .

راح ميمي يعبر عن غبطته لهذا اللقاء الميمون الذي تمناه منذ وقت طويل ، إنه يتصرف كعاشق بائس ، يقوم بحركات عبثية ، وبتسم ابتسامة عجيبة ، لم يتخلص من مكره البارد تجاه ما تضمنته كلمات رفيق الأخيرة ، يعتقد أنه نجح في الدخول إليه ، أحس أن عليه التصرف بكثير من الحدة ، لأن رفيق يعرفه متأهبا دائما ، ولا يجب مباغتته ، إنه يمشي

بجانبه في ظلام الطريق ، لم يكف عن مراقبته ، يريد أن يملئ منه داخله تماماً .

مشى رفيق ، بشكل مختلف ، إنه يعرف كل شيء حل مشاعر تشكل المهانة لرفيقه وتسعد أعماقه لدرجة القلق ، إنتظر أن يوجه له ضربة قوية ، لكن ميمي بدا كأنه لا يود الكلام ، وكأن السعادة ألزمت الصمت .

وصلا إلى المنطق التي تضيئها المصابيح ، أحس رفيق فجأة بأنه لم يعد قادراً في السيطرة على نفسه ، إستدار نحو ميمي وسأله :

– إذن ، ماذا تود أن تقول ؟

تردد ميمي لحظة ، فقبح هذا السؤال قد باغته ، بدا كأنه قد نسى كل شيء ، ولم يفكر سوى في فرحته ، إنه بصحبة رفيق ، إختفت إبتسامته ، وقاتم :

– وددت أن أسألك أن تأتي معي لترى لوحاتي ، أريد أن أعرف رأيك .

قال رفيق : حسن ، لقد ضيعت وقتك ، لن آت لرؤية لوحاتك ، لأنني لا أفهم في الرسم لن يكون لرأي أي فائدة ، قال ميمي : ليس صحيحا ، أعرف أنك رائع ، فأنت الشاب الوحيد الذكي في الحي كله ، وكل الآخرين حمير .

قال رفيق : ماذا فعلت لتقول هذا ؟

قال ميمي : أعرف فلسفتك في الحياة ، إنها شيء رائع .

تمتم رفيق : يدهشني أنك تعرف شيئا عن فلسفتي في الحياة ، وأنا لم أوليك أي ثقة .

قال ميمي : أعرف ، لكنني الوحيد الذي يفهمها ، يتردد في الحي كله الكثير من الشائعات عنك وعن أسرتك وأنا مضطر دوما للدفاع عنك ؟

قال رفيق : انه أمر مسل ، هل لي أن أعرف ماذا يقال ؟

قال ميمي : يقال أنكم جميعا كسالى ، وأنكم تقبعون في كسل أبدي ، ويحكون قصصا غريبة تتجاوز حدود الخيال ، ولا أجرؤ من ناحيتي أن أصدقها ، قد تتصورني أبله .

سأل رفيق : أي قصص ؟

قال ميمي : حسن ، لن تغفر لي ، يحكون أن أخاط جلال ينام أشهر بأكملها ، وإنه يحتاج إلى أزميل كي يفتح عينيه .

قال رفيق : كل هذا صحيح تماما ، فأخي جلال نائم منذ سبع سنوات ، ولا يستيقظ إلا ليأكل .

توقف ميمي ونظر الى رفيق ، تصور أنها نكتة ، ولكن شكل رفيق الجاد خدعه ، فشبى كهذا ممكن ، بدا مندهشا ، غير قادر أن ينطق بكلمة .

نظر اليه رفيق بجدّة ، وانتظر ، إنه يتسلى ويثير لدى ميمي حالة من الدهشة المجنونة ، بقى ساكناً للحظة ، جامد الوجه ، ثم إستكمل السير في الليل ، فتبعه ميمي صامتاً :

- آه ، يعجبني هذا الطراز .

- أي طراز ؟

- أخوك جلال ، ينام لسبع سنوات ، يا له من فنان !!

- هل تجده في هذا فنانا ؟

- بالتأكيد ، هذا ما أحاول أن أفسره لأغبياء الحي ، أنهم يعتبرونكم كسالى .

- انّها الحقيقة ، لماذا تسبهم ؟

- قلت لك أنهم حمير ، إنهم لا يفهمون سر الجمال في هذا الكسل ، أنتم أسرة غريبة ، وأنت يا رفيق ، الرجل الوحيد الذكي في العالم .

- هل تعتقد ؟

- لم أخطئ أبداً في حساباتي ، ولم أفهم أبداً لماذا تكرهني .

ألا تحس أننا الإثنين يمكننا أن نولد الثورة في هذا الحي ؟

- طالما أنك تعرف فلسفتي في الحياة ، يجب أن تعرف أنني لا أحب الصخب ، وأني معتاد دائماً على الهدوء .

- إنها ثورة روحية التي أتكلم عنها ، سنعلم هؤلاء الجهلاء ، والمتزوجين
الحكمة الحقيقية أنا أعبر برسمي عن العدم ، خسارة أنك لا تكتب ولكنك
نموذج حي وهذا يكفي .

بدا ميمي متحمسا في كلامه ، إقترب أكثر من رفيق ، وهو يهمس له
في أذنه، انه لم يتأكد من الفخ الذي يضعه أمامه ، فهو بالغ السعادة لأنه
يثير لديه النوايا الخبيثة فيما يتعلق ببشاشة رفيق ، فمشاعره تكاد تعميه ،
ترك نفسه لمعسول كلماته ، يرغب في أن يطول الطريق ، وأن يكشف له
عن نفسه في هذا الليل ، وبعد لحظات ، أحس بتهديد خفي ينمو بينه
وبين صاحبه ، إنها مشاعر غير سوية ن جاهد رفيق أن يهرب منها ، بينما
حاول ميمي أن يوعز لرفيق أن يبرهن له عن وجوده .

إبتعد رفيق عن ميمي وقد أصابه الرعب من طريقته فإستدار نحوه
ولديه رغبة مفاجئة أن ينقض على رقبتة ، ولكنه إستمر ، ولم يود أن
يكشف لعبته ، إنتظر أن يضلل ميمي أكثر كي يكومه بضربة واحدة ،
لقد حان الوقت كي يضربه ، بعد أن تداخلت الأشياء معا ، فهو لم يود
أن يصرح لميمي أن فلسفته الخاصة في الحياة أوقظت لديه حالة من
الفضول ، لقد نسي هدف هذا الخروج المشثوم ، ولم يفكر سوى في
امتنال ، سأله :

- وكيف أفسر لك العدم ؟

قال ميمي : أنا أرسم النجوم بلون واحد ، يوجد منها الأسود ،
والبعض أحمر ، والآخر أخضر ، حسب حالتي النفسية ، المهم هو ان هذا
لا يمثل شيئا .

قال رفيق : على كل أنه عدم ملون .

قال ميمي : فعلا لقد فهمتني تماما ، كنت اعرف بالطبع أنك
ستفهمني ، لقد خلقنا كي نتفاهم .

أغرق هذا الفهم الذي أبداه رفيق عن رسومه ميمي في دهشة ،
أعتقد أنه يعيش في حلم إلا أن رفيق لم يبد أي تعاطف او تسامح نحوه ،
لقد نسي كل جروح الماضي ، سار بعينين مفتوحتين نحو السماء ،
وابتسم للنجوم ، تعثر وكاد أن يسقط ، إستند على ذراع رفيق الذي
القي عليه نظرة خائفة .

– لا تلمسني ، فأنا لا أحب هذه الاساليب .

– لا تغضب ، لن أفعل ذلك عن عمد ، فأنت تعرف أن أحدا لم ير
نجمي ، ستكون أول من يراها .

– ستكون أول من أشكره على هذا الشرف .

– اه ، لا تشكرني ، إنما فرحة كبيرة لي ، وأنا متعجل لأعرف رأيك .

توقف رفيق وعقد ذراعيه ثم نظر إلى ميمي بحدة :

– لا فائدة ، لن آت لرؤية نجومك .

هز ميمي رأسه دليل دهشته :

– لماذا ؟ ماذا فعلت لك ؟ كنت لطيفا لو سمحت .

ضحك رفيق ساخرا : هل تعتقد أنني كنت لطيفا ، حسن ، يا عزيزي ميمي ، كن أنت غبي إذا اعتقدت هذا ، لم أكن لطيفا قط معك ؟

قال ميمي : أعرف انك تكرهني ، لماذا تكرهنا ؟

قال رفيق : أنت تعرف جيدا أنني لا أحب أساليبك ، أنت كبوة منفرة .

قال ميمي وقد صدم في أعماقه : انا ، لست منفرا ، أنت لا تعرف ماذا أستطيع أن أفعل

قال رفيق : لا أريد أن أعرف .

لقد أصاب ميمي في كبرائه بعمق ، وأحس بمتعة داخلية ، الآن إنتهى أمره ، ولم يبق أمامه سوى أن يتخلص منه ، إستأنف سيره وهو يعجل الخطى .

بدا ميمي منهارا ، وكأن تلك الكلمات من رفيق قد أصابته بضربة مميتة ، بقي ساكنا للحظة وهو يقف على حافة الطريق ، لم يتوقع مثل هذه الإهانة الشديدة ، فإي سبة لا يمكنها أن تجرحه بمثل هذه القسوة ، لقد

أصابت كل غروره كفنانه لا يفهمه أحد ، لقد وضعه في حالة معاكسة ،
حيث تجاهله رفيق ، وهو لا يستطيع أن يحتمل هذا ، أدرك فجأة أنه
وحيد ، تملكه خوف مرعب ، راح يجري خلف رفيق وهو يطلق
صراخات عالية ، ولكنه لم ينجح في اللحاق به .

انها ملونة الآن ، فبعد الظهيرة جاءت مجموعة من الطلاب
وكونت حلقة للشرب في غرفتها، يحدث هذا لها دائما،
على الأقل مرتين أسبوعيا، فبينما يعتقد أولياء أمورهم انهم
في المدرسة يأتون لقضاء الوقت عندها ويتركون أنفسهم
لنوع من العربة الصغيرة، ويحضرون معهم زجاجة كحول
وسجائر ويصنعون الكثير من الجلبة، ويتصرفون كمجانين،
ثم يعاودون الرحيل مترنحين، العيون تائهة ، سعداء وهم
يتصورون أنفسهم رجالا، وامثال تحب هذه الاجتماعات
الودودة ، وتلك المشاعر الرقيقة هؤلاء الشباب الذي
تصيبهم الهشاشة العدوانية .

يمارسون الحب معها كل بدوره ، ويتبارون كأهم في سباق رياضي ، ثم
يتفاخر كل واحد منهم أمام زملائه بقدراته الخاصة ، وفي كل الأحياء
يتحدثون عن إنتصاراتهم ، ولكن المجد لا يدوم طويلا ، فسرعان ما تخبو
الأشياء بواسطة رجولة أخرى أكثر إنفجارا .

هذه المنافسة بين العشاق تسعد إمتثال بجنون وتخلق حولها أشياء أقرب
إلى أسطورة المرأة الغارقة ، فكل مراهقي الحي يريدون أن يبرهنوا على
مواهبهم الجنسية ، ولذا فإن غرفتها لا تخلو قط من العشاق ، ومع هذا ،

ففي نهاية النهار تحس إمتثال بالملل ولا تعرف أين تذهب لتمدد ، وتغير القليل من الهواء ، فقبل أن يولد الطفل ، كانت تذهب دائما إلى السينما، ولكن الحساسية الفجة للأقاويل التي تتردد من حولها تجعلها مبتهجة وتنسيها حقيقة ظروفها الحزينة ، هذه الرغبة تمنعها الآن ، فهي لا تستطيع أن تترك الطفل وحده ، إنما مخنوقة في هذه الغرفة تبدو حياتها غير محتملة ، فتتسلل في التوتر والوحدة .

إقتربت من فراش الطفل ورأت الطفل النائم ، إنه غارق في النوم بطريقة غريبة طويلة الوقت ، ويبدو كأن حضور وذهاب الزبائن لا يزعجه في نومه، أحيانا تتصوره إمتثال ميتا .

وتضطرب أن تنحني نحوه لتسمع أنفاسه الرقيقة الهشة ، ولمدة طويلة ، تظل واقفة قريبة من فراشه وهي تتأمل الطفل ، ثم تذهب تتمدد على السرير وتشرذ في التفكير .

يحدث لها دائما مثل الآن ، أن تفكر في رفيق ، فتشعر بالرضا حين تعرف أنه في حالة عذاب وقلق ، فزوج العجوز حافظ يبدو لها إنتقاما قدريا ، تخيلت كم أن هذا الحدث الكبير سوف يقلب حياة عشيقها القديم ، لم تغفر له أبدا أنه هجرها ، وإمتثال بكل سهولة لرفض الأسرة ، ولمدة طويلة تمت العقاب الجسيم ، وها هو أملها يتحقق بطريقة غير متوقعة ، ثم أن رفيق محبوس في دائرة المتاعب توقعه في دوامة ، فقد عرفت إمتثال من هدى أن الشاب لم يعد ينام وأنه بحاجة بكل وسيلة أن يمنع زواج أبيه .

وهي تتعجل لمعرفة التفاصيل الجديدة حول هذا الزواج العسر ،
إنتظرت زيارة هدى القادمة التي وعدتها أن تقوم بها ، فقد أصبح ألم رفيق
هو الأمل الوحيد الذي يعطي لحياها معنى .

طرق الباب ، قامت من السرير ، وذهبت لتفتحه ، وفي ظلام السلم
لم تستطع أن تحدد وجه زائرها ، إعتقدت أنه أحد زبائنها ، فقالت بلا
مبالاة :

- إدخل .

قال رفيق : إنه أنا

كان قد دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه .

أطلقت إمتثال صرخة ، ومدت يدها للأمام كأنها تدفع ظهور الشبح ،
تراجعت نحو السرير ، واخفضت يديها ، وبقت لحظة طويلة مصدومة
من أثر الدهشة ، لم تتحقق جيدا من وجود رفيق في غرفتها ، ولكنها مل
لبثت أن تماسكت ، وراحت تطلق شتائمها :

- يا ملعون : يا ابن الكلب ، ما الذي جاء بك هنا ؟ لا أريد أن
أراك.

قال رفيق : أرجوك كفي عن الصراخ ، لم آت لأتشاجر معك ، يجب
أن أتكلم إليك .

صرخت إمتثال ، ماذا لديك لتقوله لي ، إذهب من هنا ، يا مجرم لا أريد أن أراك .

ظل رفيق واقفا وسط الغرفة وهو لا يزال لاهثا من الجري هربا من ميمي ، والطريقة التي تركه بها بعد أن جرح كبرياء الفنان المزعج ، قد أسعدته الى حد أنه وصل إلى شقة إمتثال دون أن يتنبه إلى ذلك وعلى طوال الطريق لم يفكر سوى في الحالة البائسة المدهشة التي ترك عليها ميمي وهو يملع بنور متدفق من المصابيح البعيدة ، والآن هو في غرفة إمتثال ، راح يفكر في هذا الأمر بفرحة شيطانية ، مرت لحظة طويلة ، إنتابته الدهشة لغضب الفتاه المجنون ثم تئاءب ، وتذكر أنه جاء كي يشرح لها بعض الأشياء ، إستند على ظهر مقعد وقال بضعف :

- إسمعيني : أنا لا أستحق منك هذه الإهانات ، لماذا تعامليني هكذا كعدو ؟ لقد جئت كي أشرح لك ..

صاحت إمتثال في قمة غضبها : وكيف تريدني أن أعاملك ، أنت الذي عذبتني كثيرا ؟

لعلك تريد أن أكون حاملة للجميل ؟ إشهدوا يا ناس على هذه البجاجة .

قال رفيق : لقد تعذبت أكثر بسببك ، ولكن يجب أن أفعل ، حاولي أن تفهمي ، لقد جئت لأشرح لك.

– ماذا ترشح لي ؟ أنا أعرفك أنت وأسرتك ، وكل الحي يعرفكم
أنتم متكابرون و كسالى ، ثم تجرؤ أن تأتي هنا كي تسخر مني .

– لم آت لأسخر منك قط ، إسمعيني ، وكفي عن الصراخ ، فسوف
تزعجين الناس .

– أنت خائف من الناس الآن ؟ لا تخش شيئا ، فهذه ليست مقبرة
مثل متراكم ، هنا الناس أحياء ، والصراخ لن يزعجهم ، أريدكم أن يأتوا
ويرونكم ، سيكون عرضا جميلاً .

– أرجوك يا إمتثال ، لا تثيري فضيحة .

وضحكت في سخرية :فضيحة ، الفضيحة لك ولأسرتك ، لن تفلت
منكم ، إنهم يعرفونكم ،قلت لك أن أحدا لن يعرف الجديد من أموركم

وجلست على طرف السرير، وقد كشفت فستانها عن ساقها
العاريتين في وضع إغراء متعارض مع الكراهية التي تنعكس من عينيها،
بدت أهدأ الآن، وحلت الفرحة التي أنقذتها تماما من الإنتقام مكان
غضبها، إعتقدت أنها فهمت لماذا جاء رفيق ليراها، لقد دفعته حاجته
إليها، بحثاً عن بعض البهجة، أن يتخلص بين ذراعيها من المعاناة التي تخنقه
.. رآته مهزوما أشد مما كانت تتصور، وغزا وجوده إحساس بالشفقة
ولكن لم يستمر طويلا ، وبسرعة تملكها حقد فتماسكت ، وقالت :

- أعرف ما الذي جاء بك هنا ، أنت مهموم ، هل جئت تحكي لي
عن آلامك ؟ أحذرك لا تنتظر مني شفقة ، فسوف أكون قاسية .

قال : لا أريد شفقتك .

- ماذا تريد إذن يا ابن الكلب ؟

قال : أولاً ، أريد الجلوس ، فأنا متعب جدا .

ترك نفسه يجلس فوق المقعد ، وظل ساكناً ، الظهر منحني ، والنظرة
غائبة .. أطلقت إمتثال صرخة لتمنعه من الجلوس ، ولكن صوتها انحسر
وكأنها ضربت بنوع من الفنور الذي ينبعث من الشاب ، فعلاً فالنوم
يغلب على وجوده ، وهدى على حق ، وأمام المظهر التائه والقريب إلى
الأحتقار لرفيق ، إستبد بها وهن شديد ، وإعتقدت أنها فريسة لدوامه
حقاء ، لم تستطع مقاومة كل مشاعر الفتور التي إنتابتها ، أغلقت عينيها
وكان تعباً مفاجئاً حل بها ، ثم فتحتها خشية ، ونظرت إلى الشاب المنهار
فوق مقعده ، أحست أنها خائفة حيث وجدت نفسها أمام جثة ، فكيف
تتعارك مع ميت ؟

لم يتحرك رفيق ، أحس أنه في أمان في غرفتها ، ولم يفكر سوى في
النوم ، بدا له الصمت الذي تبع سباب إمتثال ملائماً كي ينام ، فجأة
إعتراه شيء ما ، بدا له دفء هذه الغرفة المريح أشبه بفخ أكثر مكرماً من
كل فخاخ العالم ، فظهور جسد هذه المرأة النصف مغطى قد سبب له
الغضب والدهشة ، بذل ما لديه من جهد حتى لا ينظر إليها ، ورغماً عنه

فقد حطمته بجاذبيتها وأصبحت أكثر حيوية وشيقا ، بدا كأنه لم ينم أبدا
ونظر إليها في رعب ، فما رآه يؤكد انه في خطر ، تقلبت على السرير ،
باعدت إمتثال ساقها ، وكشف ردائها المفتوح كل شيء كأنها تتحداه
بجسدها العاري ، إنها تتحداه بكل تأكيد .. ولكنه شيء غريب ، فهو لم
يחס بأي رغبة في هذا الجسد المعروض عليه ، كل هذا يمثل جزء من عالم
هجرة منذ زمن طويل إنه الرؤية الشاحبة لماضي بعيد ومؤلم ، أطلق تنهيدة
وتثاءب وتماسك تماما ، ثم سقط من جديد في السكون والصمت ،
قالت:

- تكلم ، إخباري ماذا تريد .

نظر إليها مرتبكا قليلا ، لقد نسي تماما لماذا جاء ، وحاول أن يتذكر :

- آه ، لقد جئت كي أشرح لك لماذا هجرتك منذ عامين ، في هذه
الآونة الأخيرة لم تتركي لي الفرصة لأفسر لك موقعي، لقد طردتيني
ككلب، دون أن تودي حتى سماعي .

فاعتقذك إنني إمتثلت لأبي قد ضايقني ، هناك شيء أريد أن أفهمك
أياه جعلني أتصرف هكذا نوع ..

صاحت : أبوك ، أعرف جيدا أنك ستنتهي بالكلام عنه ، وبسببه
أتيت هذا المساء ، صدقي ، أنا أعرف ما يدبره لكم ، وأنا سعيدة تماما
بهذا .

وإنفجرت في ضحك حاد شق نور الصباح ، بينما أطلق الطفل في مهبه آنة ، خافته ، أكملت : إذن فهو يريد أن يتزوج .

قال رفيق مندهشا من سؤال المرأة : إذن أنت تعرفين ؟

قالت إمثال : أجل ، أعرف ، وقد شكرت السماء عندما عرفت هذا الخبر ، أخيراً أستطيع أن أمتع وأنا أراك مهموما .

قال رفيق : لا تبتسمي بمثل هذه السرعة ، فهذا الزواج لن يتم .

– لعلك أنت الذي ستمنعه ، يا طفل ؟

قال : ربما لن يحدث هذا حتى ، على كل حال .. هذا الزواج لن يتم ، صدقيني ، هناك شيء لا تعرفينه .

– أي شيء يا ملعون ؟

لم يرد رفيق ، فهم أنها مغامرة بعيدة ، الآن يلزمه أن يقول لهذا القحباء ، يريدونها أن تعرف كل شيء .

– أي شيء ، أخبرني .

ابتسم بمكر باد ، وأغلق عينيه وقال بعد لحظة صمت :

– إنه سر .

– ليأخذك الشيطان ، ما هذا السر ؟

– لا أستطيع أن أخبرك به .

– يا الله ، من الأفضل أن تقول كل شيء ، وإلا صرخت بأعلى صوتي
وسأأتي كل الجيران هنا ويطردونك كالكلب ، هيا ، قل لي أخبرني .

ورغم فتور رفيق ، أحس ببزوغ الأمل ، وبحث عن ملجأ ممكن أمام
هذا الهجوم ، ولكن الوقت تأخر كي ينصرف ، فواقحة هذه المرأة ليست
لها حدود ، إنه يعرفها جيداً ، فهي تستطيع إيقاظ الحي كله ، لأبسط سبب ،
تشير فضيحة ، قال :

– حسنا ، طالما أنك مصرة ، فلتعري أن أبي المبجل لديه أليطة .

هتفت : أليطة ؟

قال رفيق : أليطة ضخمة ، كارثة حقيقية .

إنخت إمتثال للأمام ونظرت إلى رفيق بشكل هذيان :

– لا أفهم ، ما هذه الأليطة ؟ أنت تسخر مني يا وسخ .

قال رفيق : هذا أمر سهل الفهم ، تعرفين بلا شك ما هي الأليطة ،
حسنًا ، أبي المبجل لديه أليطة ضخمة كالبطيخة ، ولا يمكن أن يتزوج بها
، هل فهمت الآن ؟

ظلت إمتثال ساكنة لحظة لما سمعته ، ثم وجدت نفسها فريسة لهيستريا مفاجئة وراحت تضحك بطريقة جنونية فألقت برأسها للخلف ، واهتز جسدها اللدن ، قال رفيق بتوسل :

- إستحلفك أن تسكتي .

بدت كأنها لم تسمعه ، ظلت تضحك وقد إستبد بها هذا الإيقاع لفرحة غامرة ، نظر إليها رفيق ، وقد إكتسى الوجه بالخوف ، فمثل هذا المجنون الحاد سيؤدي به الى عالم يغوص لى كافة للجاهل الضالفة والتائهة، أراد أن يهرب ، ولكن الخمول ألصقه بمقعده ، وأحس أن الضحك سوف يطارده للأبد في نومه .

هدأت أخيراً ، وقالت :

- يالها من أسرة ، أريد أن أقتلكم جميعا ، ومع هذا فإن حكاياتكم تمني من الضحك .

قال رفيق : ليست هذه حكاية للضحك ، لا تعرفي كم تعذبت قبل أن أعرف وجد هذه الأليطة ، لم أستطع النوم لقد أنقذتنا من بأس بشع .

قالت إمتثال : ولا يهكم ، إنها قصة جميلة ، صدقي ، سوف أذيعها في الحي كله .

فجأة لم تستطع السيطرة على نفسها ، ففكرة زاج العجوز حافظ يمكن أن تفسد فعلا بسبب هذه الأليطة اللعينة التي أسعدتها لدرجة أن

الدكوع أغروقت في عينيها ، وهكذا أفلتت منها فرصة الإنتقام ، واستبد
بها الغضب ، نظرت إلى الشاب بكرهية وصاحت :

– ليس هذا صحيحاً .

– ما هو الذي ليس صحيحاً ؟

– أن لايك أليطة ، إنها قصة اخترعتها كي تخدعني ، قل الحقيقة يا
ابن العاهرة .

قال رفيق : كل ما قلته لك حقيقي ، بشرفي ، ليست هذه كذبة فلائي
أليطة ، هل تريدين رؤيتها .

– إسكت يا وسخ ، هل تجرؤ على مراوغتي ؟

قال رفيق : معذرة ، أفهمك أنك لا يمكنك رؤيتها ، ومع هذا فهي
موجودة ، صدقيني .

وجم وهو يراها في هذا الموقف الغبي ، ولأول مرة منذ أن وجد نفسه
أمامها ، لاحظ التغيرات التي كست ملامحها ، لقد شاخ وجهها ، وبدت
عليه آثار دعارة مزمنة ، أحس رفيق نحوها بشفقة عميقة ، وفكر أنها عم
قريب ستصبح عاهرة عجز ذات جسد منهك ، ولكن ماذا يربطه بمصير
هذه المرأة ؟ هناك في العالم الالاف من أمثالها ، ولا يمكنها أن تضربه .

– إسمعيني يا إمتثال ، لم أجد هنا لأكلمك عن الأليطة واستحلفك أن
تكفي عن معاملتي كخصم ، يجب أن تعرفي لماذا هجرتك منذ عامين ..

وأن تسامحيني ، لقد اعتقدت أنني أطعت أبي ، وليس هذا صحيحا ،
والحقيقة أنني كنت خائفاً .

سألت إمتثال : كنت خائفا من ماذا ؟

- كنت خائفا من كل ما هو ليس مجود في منزلنا ، من كل شيء
يتحرك وبسير بلا فائدة في الحياة ، فعندما أغادر سريري ، أشعر أن كما
من الأشياء المشؤومة يمكن أن تحدث لي ، لا أحس بالسكينة إلا وأنا نائم
، وهذا أمر سهلا ، فلا أحب أن أبذل جهدا .

صاحت إمتثال : أنا لا أبذل جهدا ، هل جئت لتحكي لي هذه
الغباءات يا ابن الكلب ؟

- أجل ، أريد منذ زمن طويل أن أجعلك تفهمين الحقيقة التي أبعدتنا
.. كنت أعرف أنك تريدين أن أهجرك ، ولكن الآن ، أنت على حق ،
أتمنى أن تسامحيني .

قالت إمتثال : أسامحك ، هل تعتقد أنني تعذبت طوال السنتين وتأتي
لتحكي لي قصصا كيف يمكنني أن أصدق توبتك ؟

قال رفيق : لكنني لم أتب لنفسي ، فأفكاري منذ سنتين ، هي نفس
أفكاري اليوم ، كل ما أرغب فيه أن تفهمي أن أبي لم يتدخل في قراري ،
وأن همي هو رغبتني في أن أفلت بنفسي وأن أهجرك .

قالت إمثال : أعرف أنك كسور ، وأفهم هذا جيداً ، وأنت لست في حاجة لأن تقول ذلك ، ولكنني تمنيت بحبك ليّ أن تفعل أي شيء كي تهزم هذا الكسل ، يمكنك أن تعمل وتكسب حياتك دن الإعتماد على أبيك سنعيش سعيدين معا .

هتف رفيق : عمل ، أكسب حياتي ، هذا ما تفكري فيه ، وتزعمين أنك تحبيني ، إذن ماذا كنت ستفعلن لو لم تكوني تحبيني ، بمثل هذا الأفكار يمكنك أن تقتلي أنسانا ، لا ، يا إمثال ، أنا لم أخلق كي أعمل .

— ماذا تود أن تفعل إذن ؟

— أنا أنام و أعيش في ركن بعيدا عن الناس ، إمعني يا إمثال ، أنا أخاف من الناس إهم مجرمون مثلك يريدون دائماً أن يجعلوا الآخرين يعملون .

— بل انت المجنون ، ثم أن أسرتك كلها من العاطلين ، ملعون اليم الذي عرفتك فيه وأحببتك .

كانت لا تزال جالسة على السرير ، نظرت إليه في صمت وعناد ، هذا الرجل الذي أحبته يبدو أمامها شخصا غريبا مصابا بمرض معد ، لم تشك قط في أن هذا الكسل قد يصل الى حد الجنون ، سككت ، وقد سيطر عليها الخوف ، وتساءلت بأي حيلة يمكنها أن تتخلص منه .

أحس رفيق بحدوء عميق يغزوه ، بدأ في تجربة شديدة الملل حيث إنتابه
شعور هائل بالرغبة في النوم ، عم يبحث عن هذه المرأة تفسير ؟ كان
عليه ان يتأكد من إنها لن تفهم شيئا .

إنها مثل الآخرين غارقة في حياة بائسة ، قشرية ، ومستعدة أن تقلب
الأرض من أجل حكاية حب ، لا تستطيع أن تظل في سكينه ، عليها أن
تتحرك طيلة الوقت ، وتثير الآخرين ، نظر إليها بحدة ، واندھش من هذا
المرأة العارية التي أحبها يوما ، إقترب أكثر منها دون أن تنتابه أي رغبة
لمداعبتها ، لقد وصل لدرجة كره فيها مداعباتها أصبحت نحيفة كأنها أمر
يسبب التعب ، أدار ناظره ، وفتح فمه كي يتشاءب ، لكنه سرعان ما
توقف ، وإرتبك حين وقع بصره على فراش الطفل .

إنتابه شعور غريب ، تردد لحظة ، وإقترب وراح يهز الفراش وينظر
إلى الطفل النائم ، راقبته إمتثال بعينين جامدتين قلقتين قائلا :

— إنه نائم .

قالت إمتثال : نعم إنه كسول مثلك ، لكنه ليس إبنك .

— اعرف ، على كل فأنا أحب هذا الطفل ، لأنه ينام جيدا ، لا
تكلميه أبداً عن العمل .

ثم إستدار ونظر إلى إمتثال ، وعيناه نصف مفتوحتين ، كأنه ضائع في
حلم لذيد ، قال متوسلا :

- دعيني أنام لحظة في سريرك ، أستحلفك ، ليس أكثر من لحظة ،
وسأذهب بعد ذلك فوراً .

بدت إمتثال مخنوقة ، خائفة القوى ، كأنها إهزمت امام هذا الفتور
المتناهي الذي لا يمكن لقوة أن تضربه ، انفجرت باكية ، وراحت تشد
شعرها وهي تطلق صرخاتها النارية ، بينما إقترب رفيق منها ببطء وقد
أزعجه صراخها ، فأهمل فجأة فوق السرير ووضع كافة متاعبه الثقيلة في
النوم .

منذ قليل، والعجز حافظ يجلس فوق سريره يتأمل أليطته بنظرة تملأها الدهشة والخوف، وفي كل يقظة، ويغمره منظر عاهته بالأفكار الكثيفة، ويللمم القميص حتى بطنه ويربت بيد مرتجفة على الجرح المتضخم الذي لا يتوقف عن النمو وعن احتقاره له، فالطريقة الذي تكبر بها يوماً وراء يوم أشبه بالمعجزة، تبدو الآليطة كأنها معجبة بإزعاجه، بشكلها هذا الأكثر غرابة، لم يصدق العجز حافظ نفسه، فالأمر لا يتجاوز حدود الواقع ، والدمامة ، بلاشك ، فإن الشيء يلطمه بهذه الطريقة ، بنية اهانتة ، ليست هذه خطة مدبرة من أبنائه كي يتراجع عن زواجه ؟

فهؤلاء الصغار قادرون على تحديات أقوى ، ومع ذلك ، فإن العجز حافظ لم يتمكن من فهم السخرية الآلية ، والمعقدة التي وراء هذه الحكاية، فروحه عاجزة عن متابعة ما وراء هذه المؤامرة المرعبة ، ياله من عبث يكشف حقيقة لم تسبق أن أزعجته أبداً ، فهو شخص عنيد لا يريد أن يكتش يأساً ، ولا أن يستسلم لفشله ، لقد نوى أن يتزل لتوه إلى الدور الأرضي كي يبلغ ابنائه أنه أكتشف مؤامراتهم وليجبرهم على احترامه لكن ، متعة غرورهم وألاعيبهم نحوه .

أحس بالضيق وهو يتأمل عاهته ، أعاد قميصه ، وراح يغطيها ، وهو يتأوه على طريقته ، كيف يمكن أن يتسم هذا الزواج الذي يود أن يتمتع به في سنوات شيخوخته ؟ فكل شيء يتآمر عليه ، ويتركه ، فالحاجة .. زهرة لم تقف بوعدا منذ أن وعدته في زيارتها الأخيرة بأشياء مثيرة .

لقد نست بلاشك ، ولم يعد ليده ما يؤنس وحدته سوى منظر أليطته المثير للرتاء ، انه وجدده أمام هذه الأليطة المؤلة ، الذي يحس بها تتضخم بين ساقيه بلا حدود ، وتملاً السرير بضخامة غير مألوفة .

وكي يهرب من وساوسه ، أمسك الصحيفة التي وضعها على المنضدة، وفتحها ، انها صحيفة قديمة ، مصفرة الأوراق ، طمست فيها حرف الطباعة مع الزمن مما يعطي القارئ وقائع مشاكل حياته مع العالم ، فما أن قرأ بعض السطور حتى أحس بحلول التعب ونام .

وبعد لحظة استيقظ على صوت شخص ينادي اسمه بصوت وقور مخنوق :

— حافظ بيه .

فتح عينيه فجأة، بدا له أن النداءات آتية من بعيد ، من خارج المنزل تقريبا ، اعتقد أنه يحلم وأراد أن يستأنف النوم وعندما رأى هيكلا أسود واقفا في إطار الباب :

— آه ، أنت ، إدخلي ماذا جرى لك يا امرأة ؟

قالت الحاجة زهرة : لقد انشغلت عليك

كانت تلهث : وأثار لهاثها ضجة أشبه بماكينة بخار ، راحت تشكوو
لتوها :

- يا لها من سلام بائسة ؟ لم أعد في سن أقدر على الصعود إلا من
أجلك .

وتقدمت في الغرفة ، ضخمة ولدنة ، وقد التفت ملأها السوداء
حول جسدها ، وفي كل حركة من حركاتها يهتز صدرها الضخم
بطريقة مرعبة ، وسرعان ما امتلأت الغرفة بوجودها .

اعتدل العجوز حافظ في مقعده كي يتأملها ، فظهور الحاجة زهرة
المفاجئ أمر يدعو إلى التفاؤل ولا شك أن فيه حل لمشكلته ، قال :
- هيا ، أجلسي ، وأحكي لي الأخبار .

قالت الحاجة زهرة : اتركني لأخذ نفسي .

وقرصت أرضا ، ولفت ملأها حولها ، وعدلت بكل حذر من
جسدها الضخم في اطارها الضخم ، ثم ظلت ساكنة ، راسخة مثل
القدر، فقد شعرت وهي تصل الى هدفها بجوية ورضاء ، فلا شك أن
الجحيم بعينه هو أن تجر جسدها اللدن المنتفخ ، الثقيل من أثر الشحم ،
عبر بيوت الأثرياء تدفعها مهنتها كخاطبة ، فقد يحدث أن تعلق في إحدى
المرات ، أصبح من الصعب عليها أن تتحرك بعد أن كفت عن اللهات

ولكنها لم تقل شيئاً ، فروحها الجشعة المعبقة بالطمع تعرف الثمن الذي وراء الصمت الذي يسبق البوح ، سألها العجوز حافظ :

— ماذا فعلت لتصلي إلى هنا ، ألم يرك الأولاد ؟

— لم أقابل أحداً

— أحسن ، لعلهم نائمون ، ألما ساعة القيلولة ، على كل حال ، إذا منعوك من الصعود ، قاصرخي وسأنزل كي اعيدهم إلى صوابهم .

تأهوت الحاجة زهرة : لماذا يمنعوني من الصعود ؟ ماذا فعلت لهم ؟

— يا الله ؟ أنا امرأة مسكينة .

لم تكن الحاجة زهرة تجهل شيئاً عن متاعب العجوز حافظ التي يعانيتها مع ابنائه منذ أن أعلن عن رغبته في الزواج ، ولكنها تجب أن تلعب دور الكتومة ، وتمثل دور الشهيد ، فإن حسها المهني يدفعها إلى هذا السلوك ، قال العجوز حافظ :

— انهم يعرفون أنك مهتمة بزواجي .

وانتجبت الحاجة زهرة : وماذا بعد ؟ أنهم لم يروني ، ومع ذلك يشكون ، أنا لم أقدم لك فتاة عوراء أو حدباء ، كما أعرف ، فعندما سيرونها ، لن يصدقوا أعينهم .

- الأمر لا يتعلق بهذا ، فالأولاد لا يريدوني أن أتزوج ، لكن لا تهتمي، سيتم هذا الزواج رغما عنهم ، وسيعرفون جيداً أنني رب البيت.

- يا الله ، ماذا ، انهم قطاع طرق ، سوف انهشهم ، والآن دعي هؤلاء الاطفال للشيطان واحكي ماذا فعلت .

تنهدت الحاجة زهرة وبدت كأنها في مناحة ، وعليها أن تعبر عن أحزانها امام مصائب العالم التي تحوطها :

- اتمنى أن تكون ابنة اسرة طيبة

- أسرة طيبة ، ماذا تعتقد يا حافظ بيه ؟ هل تعتقد أنني سأقدم لك فتاة غلبانة ، يا الله ان لها اسرة ، واي اسرة ، وكي تنال رضاهم ، عليك أن تعيش عندهم اسبوعاً .

اراد العجوز حافظ ان يتجاوز هذه المبالغة الزائدة ، ولكن القلق الذي ساد في هذه اللحظة قد تجاوزه ناحية أخرى فراح يتكلم :

- ولماذا ؟ اتمنى ان تخبريهم من أنا ؟

- طبعاً ، ولكن الفتاة لم تتعد السادسة عشر ، وتتمنى لو تزوجت أميراً .

ردد الحاج حافظ : انها حمقاء .

أجابت الحاجة زهرة: وهذا ما حاولت أن أجعلها تفهمه طوال اسبوع، فهم لم يصدقوا كل ما قلته عن ثروتك واسمك ، ترددوا ، وفي النهاية اخبرتهم أنه السكر .

سأل العجوز حافظ دون أن ينتبه إلى هذا المرض الذي يسمع عنه : ماذا .

- في البداية لمعت وجوههم ، ثم ابتسوما وقالوا لي : "إذا كان هذا صحيحا فلا بد أن يكون رجلا مرتاحا، "فأجابت": هل رأيتم ابدا يا ناس، شحاذين بالسكر ؟ بشرفي ؟ ماذا ينقصكم وعند هذه النقطة وافقوا .

قال العجوز حافظ : حسنا ، أنت امرأة واسعة الحيلة ، ولن أنسى مكافأتك .

قالت الحاجة زهرة ، وقد بدت عليها العزة والكرامة ، أنا لا أفعل هذا من أجل المكافأة .

أحب أن أؤدي الخدمات للناس وأنت تعرف الاحترام الذي أكنه لأسرتك ، أنا أفعل ذلك من أجلك ؟ فأنتم نورة الحي .

ولان العجوز حافظ يحب الوقار ، فقد اعادت له هذه الكلمات وضعه الاجتماعي ، فهو لم يتلق مثل هذا التوقير ، منذ أن قطع علاقاته بالعالم ، فالوقار الذي تكنه الحاجة زهرة ، يقوده لته إلى الرضاء الروحي الذي يفتقده منذ أمد ، رغم علمه أن الامر كله عملية تجارية ، تملل على سريريه ، ومرر يده على وجهه ، ثم بدا كأنه يتذكر فجأه أمرا هاما :

- ولكن يا حاجة زهرة ، ما رأيك ؟ فأنا لست مصابا بالسكر ؟

تراجعت الحاجة زهرة وحاولت أن تعرض جسدها الضخم فوق أرضية تماسكت وقالت وهي تلهث بقوة :

- وماذا بعد ؟ ماذا يعني هذا ؟ انه أمر يدعو للرتاء .

قال العجوز حافظ : ومع هذا فهو مرض .

- انه مرض الاثرياء ، وعليك أن تعطي نفسك حقها ، صدقني ، أعرف ماذا أفعل .

تردد العجوز حافظ بضعة ثوان ، وفكر في الآليطة وتساءل : هل هذا المرض ، الذي تضخم لتوه يمكن ان يعتبر عاهة ، ويمكن أن تكون عائقا، هذه الفكرة أسعدته ، وسأل بدون وعي :

- هل أنت واثقة مما قلت يا امرأة ؟

بالتأكيد، اقطع ذراعي إذا كذبت .

ودام صمت، طرد العجوز حافظ الافكار السيئة عن نفسه، وتمدد على سريره ثم رمى نفسه في الحلام الشيخوخة حول زاجه المقبل، كانت أضواء ما بعد الظهيرة تغرق .. الغرفة وتمنعه من الرؤى الرائعة التي بدأت في هشه ،أغلق عينيه، وبقي تائهاً لفترة طويلة في سعادة غامرة، ثم خاف من الصمت الذي يغزوه، وبدا أن هذا الصمت يخفي أشياء قدرة عفة تحاول أن تتغلغل فيه، وكى يبدد طمأنينته، أحس بالعرق يغطي كافة

أعضائه ، فتح عينيه ، وأطلق تنهيدة عميقة ، ثم استدار نحو الحاجة زهرة ، وألقى عليها نظرة باردة .

أعتمدت الحاجة زهرة على اختيار أفضل الوسائل التي تستخدمها كي تحصل على أفضل مكسب من الموقف ، فعندما تنهد العجوز حافظ قاطعا أفكاره المسكينة ، اعتقدت أنه تم كشفها فتأوهت بكل جسدها اللدن ، أعادت اطراف ملائحتها بشكل غريزي حول خاصريها ثم اسندت كوعها على ركبتيها ، ونظرت للأمام وسألت بصوت أجش:

– لماذا هذه التنهيدة ؟ مم تخشى ؟

فتح العجوز حافظ فمه ، بوجهه الاشبه بمومياء مربعة وراح يئن ببعض أنين الشكوى .

كررت الحاجة زهرة :

– مم تخشى ، أنت عريس جديد ، ماذا يزعجك ؟

وبذل العجوز حافظ جهداً ، وقرر أن يتكلم :

– يجب أن أخبرك بشيء.

قالت الحاجة زهرة : أسمعك ، ماذا هناك ؟

– هل تعرفين أن الأليطة تتضخم يوماً بعد يوم ، وهذا أمر لا يجب إنكاره .

- كيف هذا ؟ في آخر مرة قلت لي أنها بدأت في الإنكماش ، ماذا إستجد الآن ؟

صرخ العجوز حافظ : يا الله لا أعرف؟

قالت الحاجة زهرة : مستحيل.

قال العجوز حافظ : أشك أن الأولاد قد يلعبون بي لعبة شريرة .

- الأولاد ؟ ماذا يفعل الأولاد هنا ؟ أنا لا أفهم .

- إنه أمر بسيط ، إنهم الذين يسيطرون ، ويريدون منعي من الزواج، هؤلاء الأبالسة .

سألت زهرة وقد تسلحت تقريبا بروح شريرة :

- ولكن كيف يأخذون الأمر ؟

- لا أعرف ، ومع هذا فأنا أشك فيهم بشدة .

هزت الحاجة زهرة رأسها ، وأدركت أن العجوز قد أصبح أكثر تساهلا ، ولكن هذا لا يعني بالنسبة لها سوى الإحساس بالإستياء ، ثم أن هذا ليس ضربا من المستحيل فالأبالسة قادرون على كل شيء ، فالأليطة يجب أن تكون بالنسبة لهم لعبة ساخرة .

فجأة دفعتها مصلحتها أن تهدئ من خشية العجوز :

- ولكن يا حافظ بيه ، الأولاد لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً كهذا ، انت ابوهم قبل أي شيء.

- انهم قطاع طرق ، صديقي ، لكن الأمر لا يتوقف فقط عند هذا الحد ، فأنا قلق لشيء آخر ، أخبريني ، ألا تعتقدي أن هذا قد يفسد زواجي ؟ فعلاً أنت تؤمني يا حافظ .

- إذن ، ما هو الشيء الذي لا يثير قلقاً ؟

قالت الحاجة زهرة : رجل مثلك ، قي وجميل كالأسد ، تقلق من أجل أليطة صغيرة مسكين .

- ألا تريدين رؤيتها ؟

قالت الحاجة زهرة : أريد ، ماذا يمكن أن أفعل من أجلك ؟

- إذن ، قومي ، وتعالى ، أريد أن أعرف رأيك ؟

- لقد قلته لك تواً ، يا الله ، تخاف من دمل بسيط .

وضعت الحاجة زهرة ملائتها حول جسدها ، وتنهدت طويلاً كي تعد نفسها للمجهود الذي ستبذله ، ثم بحركة بطيئة مأخوذة في الحسبان ، تمكنت من الوقوف .

عندما إقتربت من السرير ، رفع العجوز حافظ الغطاء ، وكشف أسفل بطنه ، بدت الأليطة بين ساقيه ، تصعد حتى عضوه الضامر ، أشبه

بكراً قدم منفوخة من آخرها ، عند هذا المنظر ، ورغم شجاعتها ،
وشهرتها كأمراة قوية الشكيمة ، لم تستطع سوى أن تطلق تنهيدة رعب ،
سأل العجوز حافظ :

– ما رأيك ؟

أجابته الحاجة زهرة : لا شيء ، كما توقعت من قبل ، أنت خائف بلا
سبب .

– أما ضخمة ، أليس كذلك ؟

– ماذا تقول ، كيف ترى أنها ضخمة ، بشرفي يا حافظ بيه ، أنت
تحلم .

– ربما ، في الحقيقة ، لعله حلم .

قالت الحاجة زهرة ، أبداً سوف أدلكها لك ، ستري ، سوف تختفي
خلال دقائق ، فقط دعني أفعل .

وإنخت عليه ، وببد خبيرة ، مررت أصابعها حول الليفة ، في البداية
ارتعشت عندما لمست هذا الجلد الجامد كالحجر ، ولكن خطورته قد
دامت مدة أطول ، بسرعة نست ما الذي جاء بها إلى هذا المنزل ومهمتها
كخاطبة ، فلا يوجد بالنسبة لها سوى هذا الشيء الغريب الذي تمسكه
أصابعها برقّة ، ويسحرها بفحشه القاسي .

إستيقظ رفيق فجأة ، كان نائماً على أريكة غرفة الطعام ، بينما كان يتربع قدوم الحاجة زهرة ، دعك عينيه ، وتساءل منذ متى ه نائم ، وثقلت عليه فكرة انه فشل في مهمته ، وعم إذا كانت الحاجة زهرة قد جاءت أثناء نومه ؟ اعتقد أنه سمع همساً في الطابق العلوي ، ملأ أذانه ولكن شيئاً لم يؤكد إحساسه ، تمطى وقد انتابه ألم ، وأحس بالانهاك ، وأن أعضائه ثقيلة من التعب الشديد ، لقد حلم أنه يعمل حملاً في محطة قطار وأن مسافراس غريب الأطوار يرتدي طربوشاً أصفر كلفه بحمل صندوق كبير ، إنه صندوق ضخمة ، لم يعرف رفيق كيف يمكنه أن يرفعه فوق ظهره ، مشى خلف المسافر وخرجاً من المحطة ، مشى المسافر بخطى بطيئة وعبر الشوارع الطويلة التي لا تنتهي ، وراح يمر الأرصفة دوماً وبدا أنه غير مبال بالوصول إلى أي مكان ، أحياناً يتصرف بسعادة مأكرة وهو يتجول في الحواري الضيقة ورفيق يحمل الصندوق فوق ظهره ، ولا يستطيع المشي إلا بمعجزة ، إستغرقت الجولة وقتاً لا نهاية له ، راح رفيق يلهث وهو يتتبع هذا المسافر الغريب ، حطم ثقل الصندوق أعضائه ، انه في كل لحظة مستعد ان ينوه تحت حمله ، وفجأة أبطأ المسافر الخطوة ، وبدا كأنه يبحث عن شيء حوله ، ثم بحركة محسوبة إستدار وإنفجر ضاحكاً في وجهه ، بوغت رفيق ، وترك الصندوق يسقط ، وهروول وهو يصرخ في رعب ، ثم إستيقظ .

انه لا يزال يحتفظ في أذنه بضحكات المسافر الساخرة ، أنها ليست المرة الأولى التي يسمعها ، إنها نفس الضحكة التي سمعها عند إمتثال ، تذكر زيارته للعاهرة وأحس بالسعادة لأنه تخلص للأبد من هذا الحب

المدمر ، لقد إنتهى كل شيء معها الآن ، ولن تمنعه ذكرياته أن يغرق بلا أي مرارة في بهجة النوم الدائم ، لا يثقل عليه الآن ، فقد شرح لها كل شيء ، ولكن هل فهمت ؟ لا يهم ؟ لقد قاطع الماضي تماما ، ولن يكون بعد ذلك فريسة للندم الذي يؤرقه منذ عامين .

ستكون الحياة رائعة ، لو تمكن من منع أبيه من الزواج ، هذه الكارثة المحتملة توجب عليه اليقظة الدائمة ، حقا أن هناك أليطة ، ولكن الاليطة لن توقف الحاجة زهرة من رغبته في المكسب، فهي قادرة أن تجد في أليطة العجوز حافظ وسيلة لإثراء مضمون، وأن تظهره كأنه نوع من الجمد، ورفيق لم يشك أن عليه أن يفتح عينيه، قأقل تغافل من طرفه قد يخاطر أن يفسد كل شيء توصل أن عليه منع دخول الحاجة زهرة من دخول البيت، وعند الضرورة سوف يضربها رغم بدانتها .

قام من فوق الأريكة، ولف حول المائدة ونظر من النافذة ، كانت أشعة الشمس تملأ المنزل، إنه مغلق النوافذ دائما، فكر في النساء اللاتي يحتفظ بهن الرجال الغيورون سجينات، وهنأ نفسه أنه في مأمن ، يحميه منهن الجدران لأنهن يحاولن بلا شك أن يغرينه، بابتسامتهن الغبية وعيوفهن التي تشبه عيون عاهرات شريفات، انه لا يستطيع أن يسرق مكر هؤلاء الإناث اللاتي يتعاملن مع الحياء بدون حواذيت، ولا قصص فاضحة.

ومن جديد سمع همسات، ولكنها هذه المرة أكثر جدية ، فهم بشك غريوي أن هناك صوتا في غرفة العجوز حافظ ، جرى نحو الممر وتوقف

أسفل السلم، ورفع رأسه وتصنت ، أنه بالتأكيد ما ينتظره ، فالحاجة
زهرة موجودة بأعلى عند أبيه ، لقد سعدت وهو نائم كالأبله .

صعد السلم ببطء، حرص ألا يصدر أي صوت على درجات السلم،
أراد مفاجأة الحاجة زهرة وأن يخفيها .

كان باب الغرفة مفتوحا ، وباغته المنظر الذي فرض نفسه أمامه ، لم
يجرؤ أن يصدق عينيه، فالحاجة زهرة واقفة بالقرب من السرير منحنية
نحو أبيه، وتبدو كأنها تمسك بيديها شيئا خفيا يحتفظ به العجوز بين ساقيه،
إنها الأليطة ، قفز رفيق ووجد نفسه وسط الغرفة .

هتف العجوز حافظ دون أن يفكر في إخفاء عورته العارية :

- أنت ، يا حرامي .

قال رفيق : نعم .. أنا .. سوف أقتلها ، هذه الفاحشة العاهرة .

رفعت الحاجة زهرة يدها في الهواء مبعوته ومرتعدة، أرادت أن تتكلم،
لكن حنجرتها خنقتها بالمعاناة، ولم يصدر عنها سوى تأوهات خافتة، انهار
جسدها الضخم تحت التهديد، اقترب رفيق منها، وجذبها من ذراعيها نحو
الباب، ثم ركلها في مؤخرتها فدحرجها على السلم، وهربت مثل زوبعة
عبر المتزل النائم .

أما العجوز حافظ ، فراح يصرخ بصوت مخنوق :

- العسكري ، هاتوا العسكري ، امسك حرا

وقف العم مصطفى في الممر، يرم شاربه بعصبية ، لقد وجد نفسه أمام تجربة قاسية فأخوه العجوز حافظ كلفه بمهمة حساسة وأمر بالغ الصعوبة، عليه أن يوقظ جلال، أن يجعله يصعد لرؤية أبيه، أراد العجوز حافظ أن يتكلم من ابنه الكبير عن الأحداث الأخيرة التي دارت في المنزل، فالعم مصطفى لم يستطع رفض المهمة، وهو الآن فريسة لمتناقضات غريبة، فإيقاظ جلال ليس عملاً سهلاً ، ولكن قيامه بالصعود هو بلا شك عين الجنون .

فجأة، وبعد الكثير من التردد قرر العم مصطفى مواجهة الخطر ودخل غرفة جلال، وكأنه كان ينتظره، وجد الشاب غارقاً في نوم عميق، الوجه هزيل وشاحب وكأنه جثة، يتنفس جلال بصعوبة، ويبدو كأنه يزفر الحياة التي تركها منذ زمن طويل ، بقي العم مصطفى متردداً للحظة ، أحس بالخوف من الأمر الذي أوجده أمام هذا المشهد ، ثم مد يده ولمس جلال في كتفه ولكن هذا اللمسة الخفيفة لم تترك أثراً على نوم جلال ، تجرأ العم مصطفى أكثر وهزه بشدة بدا الشاب كأنه ييعارك في حلم ، تأه مزجراً ، ثم فتح عينيه أخيراً ، وكأنه خارج من المقبرة .

— حسناً ، ماذا بك يا رجل ؟

قال العم مصطفى : أبوك ؟

- أبي ، هل مات ؟

- معاذ الله ؟ بل يرغب في ان يكلمك .

إستدار جلال بقوة نحو الحائط ، وكأنه يلمح أن هذا الأمر لا يهمه :

- بشرفي ، إنه مجنون .

قال العم مصطفى : الأمر خطير جداً ، يا عزيزي جلال ، أستحلفك أن تقوم .

قال جلال : أبدا ، ستكون نهاية العالم ، إخبّره أنه ليس لديّ وقت ، ما حاجته في أن يراني ؟

- قلت لك أنه يريد أن يكلمك .

- يكلمني ؟ يا لها من فكرة ولماذا يريد أن يكلمني ؟

- لا أعرف ، ولكنني أؤكد لك أن الأمر مهم .

- يا رجل ليس هناك شيء مهم ، يجعلني أترك سريري.

إنه رفض غير نهائي ، لكن العم مصطفى إعتاد كثيرا على هذه النظريات التشاؤمية والهمجية المتعلقة بالنوم والتي صدمته دوما ، فصبره ليس مستعدا أن يطول ، وهكذا لم يصبه اليأس للوصول إلى هدفه ، إنتظر لحظة ثم قال بلهجة مهيبّة :

– سوف يغضب أبوك .

– فليغضب ، أحسن ، فلعله يدعني أنام .

– إسمع يا بني يا جلال ، أقسم لك أن الأمر لن يستغرق سوى لحظة احدة ، فافعل ذلك من أجل خاطري .

– تريدني ان أموت من أجلك يا رجل ، يا لها من وسيلة توقظني في الفجر كي أصاب ببرد ، أليس لديك رحمة ؟

قال العم مصطفى : الساعة الآن عشر ، ولن تصاب ببرد ، فالجو لطيف ، هيا ، يا جلال يا بني ، فالأمر لن يستغرق دقائق ، ثم أن تغيير الهواء سيفتح ضهيتك .. فقد إقترب الغداء .

تأوه جلال : والسلم ، ماذا تقول عن السلم يا رجل ؟

– السلم ؟

– نعم ، السلم للصعود لأعلى ؟

– ماذا ؟

– هل تتصورني عامل بناء ، أنا لا أستطيع صمود السلم قط ، قال العم مصطفى : لا تفعل ، سوف أساعدك ، ولن تبذل مجهوداً .

قال جلال : لن اصعد إلا إذا حملتني .

وعده العم مصطفى : سأبذل كل ما بوسعي .

بدا العم مصطفى سعيدا بهذا النجاح ، فهو لم يتوقف أن يكون الأمر بهذه السهولة غرس طربوشه في رأسه ، واستعد لإخراج جلال من سريره ، لكن الشاب بدا كأنه لا يود أن يتحرك ، وتمثلت أمامه مهمة صعبة ، فأمامه وقت طويل قبل أن يسترد وعيه ، ففي كل مرة يقوم بفتح عينيه سرعان ما يغلقهما ، لم ينجح في أن يحتفظ بهما مفتوحتين ، وفي النهاية أصابه اليأس ، ولم يبذل أي مجهود لفتحهما ، وصار نحو عمه كأنه شخص ضئيل ، هذا الذي وضع ذراعه حول كتفه ، وأخذ يساعده في الخروج من الممر .

جلس العجوز حافظ ينتظرهما في سريره ، منتفخاً كامراًة حامل وقد ظهرت الأليطة عبر الملاءة ، إتخذ كامل هيئته وهو يستقبل ابنه ، وجاهد في الاحتفاظ بكرامته وسيادته قائلاً :

- يا بني يا جلال استيقظ ، فعندي أمر هام يجب أن أكلّمك فيه .

وما أن دخل جلال الغرفة حتى نظر حوله ورأى أباه يشعل السرير ، فتخلص من ذراع عمه مصطفى وهو يترنح أرضاً ، إستند على الحائط وأخفض رأسه ، واستكمل نومه المتقطع ، دون أن يبالي بالكلمات التي وجهها له أبوه ، قال العجوز حافظ متنهدا :

- يا له من غلام !!

قال العم مصطفى : فعلت ما بوسعي ، ها هو ، كلمه إذا أردت .

وأمام الحالة التي وصل إليه ابنه ، فكر العجوز حافظ لحظة ، وتساءل كيف يوقظ هذا المخلوق انائم وكأنه تحت تأثير مخدر ، فقراره بالزواج يبدو أكثر من أي وقت مضى ، أقوى من سلطته ، لقد قرر أن يتخذ قرارا لا تقف أمامه رغبة هذا العجوز الهرم ، فتصرف رفيق المشين أثار حميته للسيطرة ، فهو لا يريد أن يعتبرف بهزيمته أمام وقاحة هذا الغلام الفاسد قليل التربية ، تخيل كيف يمكنه إستمالة جلاله ، في الواقع فإن العجوز حافظ يشك في حدة رفيق وإشتمز من فكرة أن يكلمه وجها لوجه، فذكرى الحدث الذي دار بالأمس لا يمكن نسيانها .

فقد إعتلت صحته بهذا التصرف أما الأليطة فإنها لا تزال تنمو .

نظر إلى جلال يائسا ، وأطلق تنهيدة قائلا :

- يا جلال يا بني ، استيقظ ، فأنت الكبير ، وأنا أعتمد عليك كي تدير أمر هذا البيت .

وأمام هذا الإنتظار ، رفع جلال رأسه كي يستيقظ فقد قرصه برغوث.

- ماذا ؟ ماذا تقول؟

كرر العجوز حافظ : أقول أنك الكبير وعليك واجب عقوبة إخوتك.

- ماذا فعل إخوتي ؟

- يا الله ، ألا تعرف ماذا حدث بالأمس ؟

- لا ، كيف تريدني أن أعرف ؟

- حسنا؟ تصرف أخوك رفيق كقطاع الطرق ، وكاد أن يقتل الحاجة زهرة .

قال جلال : يا له من ولد شجاع !!

صاح العجوز حافظ : كيف ، إذن فأنت متفق معه .

قال العم مصطفى : انها جريمة .

كان العم مصطفى قد جلس فوق مقعد قوته ، هز رأسه بمهابة في أسي ، ومن وقت لآخر راح يتنهد بطريقته المشتتة اليأس ، ثم قال :
- انه احمق .

لم يرد جلال ، فهو من ناحيته لا يريد أن يتدخل ، ولا أن يدخل في مناقشات لا طائل منها ، فكر في أن يعود إلى سريره ، أكمل العجوز حافظ :

- يا جلال يا بني ، أستحلفك أن تستيقظ لحظة وتسمعني .

رد جلال : هه ، ماذا تريد ؟

- أريدك أن تكلم أخاك رفيق ، قل له على لساني إن لم يكف عن أساليبه الإجرامية ، وإذا لم يتب فسوق أعلمه إنني السيد هنا .

ظل جلال ساكنا للحظة أمام هذه الكلمات التي تحمل نبرة تمديد، يبدو أن هذا تراجع أمام السلطة التي يمارسها أبوه الغاضب، انه أمر بالغ العبثية، ولذا أعتقد أن عليه أن يبدو متساءلا فتلك أحسن وسيلة ينهي بها هذه الحكاية .

– نعم يا أبي .. اهدأ ، سوف أكلمه ذات يوم .

– كيف ذات يوم ، أريدك أن تكلمه اليوم .

قال جلال متوسلا : ألا يمكن أن تنتظر على الأقل حتى الغد ؟

أطلق العجوز حافظ تنهيدة يائسة بعد أن أدرك عدم جدوى هذا الحديث قائلا :

– إذن كلمه غدا .

في تلك الأيام كان سراج يبحث عن في السندرة ، لقد فكر ملياً طوال الأيام الماضية ، بعد أن فشلت محاولته في الهرب من المنزل مما وضعه في مواجهة أسرته ، لدرجة أن العم مصطفى قد كلمه ببعض الرثاء وكأنه يتحدث إلى شخص مريض ، ولذا فهو أشبه بطفل صغير ممنوع من الخروج ، لا يتعامل أحد بمجدية مع رغبته في العمل ، هذا الموقف أهان طبيعته كفنان ، وهو بالنسبة له مصدر للمتاعب الدائمة ، عليه أن يبين لهم أنه يستطيع أن يذهب حتى آخر أفكاره .

وعليه أن يحصل على إستقلاله في تخطيط المساة والجوع .

فهم سراج أنه لا يستطيع مغادرة المنزل مع بعض النجاح إلا إذا حصل علي بعض المال ، وكي يفعل ذلك فقد فكر في بيع كتبه المدرسية القديمة ، وأيضاً كتب أخوته إلى أبو زيد بائع الحرنكش ، فبيع الكتب سوف يوفر له بعض المال ، بالتأكيد لن تحقق مبلغاً كبيراً ، ولكن القليل الذي يحصل عليه منها يمكنه أن يجعله يعيش أول مرحلة من الإستقلال ، إلى أن يجد عملاً سوف يشتري عن أبو زيد الكتب بالتأكيد ، ويمكنه بهذه الطريقة أن ينمي تجارته البائرة ، وهي فرصة لأن يصبح حانوته مكتبة ، والتي ستصبح شيئاً جديداً في الحي ، لم يصدق سراج أن لديه مثل هذه الفكرة الرائعة، فأبو زيد سيؤسس أول مكتبة في الحي ، وهذا سوف يجعله محط إحترام من كل النبلاء .

كانت السندرة معبقة بالتراب ، مضائة بالنور ، تتكدس فيها بلا ترتيب كل أدوات المطبخ التي لم تعد صالحة ، وأثاث قديم ، وأشياء لم يعد أحد يسعملها ، كان سراج يعرف أن الكتب التي يبحث عنها موضوعة في حقيبة ، وجدها مخبئة في ركن تحت كومة من الزجاجات الفارغة والأواني المتكسرة نجح في أن يخرجها وأن يرفع عنها التراب الذي يغطيها وفتحها .

تحسر قلبه عندما تذكر أيام التلمذة ، وذلك الزمن البعيد الذي كان يذهب فيه إلى المدرسة ، هذه الكتب تمثل بالنسبة له ماضي رائع ، في تلك المرحلة بدا المستقبل مشرقاً مليئاً بالوعود ، لم يكن المنزل قد أصبح

كما هو عليه الآن ، حالة لا يمكن إختراقها من النوم ، أمسك كتابا وراح يتصفحه :

– ماذا تفعل هنا ؟

سقط الكتاب من سراج ، فإستدار .

– انه أمر لا يخصك يا فتاة ؟

قالت هدى : أبحث عنك منذ ربع ساعة ، الغذاء جاهز .

إقتربت منه ببطء وهي سعيدة بعثورها عليه ، تراجع إلى الخلف ، فهو يخشى هذه الفتاة الصغيرة أكثر من العالم كله ، فرقتها الشديدة تمثل بالنسبة له كميناً يكبر في كل مرة بيأس شديد هذه الفتاة بجها العميق وسداجتها المتناهية ، تضعف دائما رغبته في التمرد ، فعندما تكون معه تتحول مسخا وتخرج من طفولتها وتصبح امرأة متخلفة مجنونة ، وقالت :

– لماذا تبحث عن هذه الكتب ، ماذا تدبر من جديد ؟ متى ستصبح عاقلا ؟

– دعيني في حالي ؟ أنا كبير أفعل ما يعجبني .

– لست سوى طفلا .

قال سراج : حسنا ، سوف أبين لك أنني لم أعد طفلا ، فسوف أبيع هذه الكتب التي تربنها .

- تبيعها ؟ لماذا ؟

- كي أمتلك نقودا يا فتاة ؟

- ماذا ستفعل بالنقود ؟

قال سراج : يمكنني أن أهرب من هذا المنزل بالنقود ، هل فهمت الآن ؟

قالت : آه .. أيها الصبي الملعون ، إذن ستعاود جنوك ؟

قال سراج : قررت أن أذهب ، ولكن هذه المرة الأمر جاد ، فمن النقود التي ستجلبها لي هذا الكتب ، سأصرف لأتمكن من الحصول على عمل .

- ثم ترحل .

إغرورقت عيناها بالدموع ، اعتقدت أنه قد تخلص من المغامرات الخطرة فهايا ، وها هو من جديد ، لا يفكر سوى في الهروب والتسكع في الطريق ، لكن ماذا يمكنها أن تفعل ؟ ولعل فرصتها الوحيدة في أن تظل قريبة منه هي أن ترحل معه ، قاله له :

- خذني معك .

قال سراج لك أخبرتك أن هذا مستحيل .

وإنسكبت دموع هدى ، وبدت كأنها تستميله ، إبتسمت للشاب ،
وراحت تقدم له شفيتها ، ولكن سراج أدار رأسه فدفعت هدى غطاء
الحقيبة ، ثم جلست فوقها وأمسك يد سراج وجلبته نحوها :

- أجلس قريبا مني .

تركها سراج ترتقي فوق الحقيبة خائفة بلا قوة ، وكأنه منوما
مغناطيسيا لا يستطيع أبدا أن يقاوم السحر الفواح الذي ينطلق من هذا
الجسد الشاب .

- إذن فأنت لا تريد صحبتي ؟

قال سراج : لا ، ماذا أفعل بك ؟

قالت هدى بدلال : سأهتم بشئونك .

- أفضل أن أرحل وحدي ، لست في حاجة إلى امرأة .

- ستكون وحيد ، وسوف أحملك .

- لماذا تخافين ؟ فالعمل لا يخيفني .

قالت هدة : ماذا تعرف عنه ، أنت لم تعمل قط ، ومن القسوة أن
تسافر وحدك ، ألا تصدقني ؟

قال سراج : لا أعرف ، على كل حال من الأفضل أن تبقى في هذا
المتزل .

مالت نحوه ، وهمست في أذنه وهي تتوسل إليه :

– أصبحني ، لا تتركني ، وإلا قتلتك .

بدأ سراج يتحدث عن خوفه من الرحيل إلى المدينة وحده فالفكرة في أن يصحب هدى معه لم تبد له عبثا ، في الحقيقة فإن صحبته للفتاة ستكون مفيدة له وسيجعل وجودها إلى جانبه الأمور أقل صعوبة في ظروفه الجديدة ، ولذا تردد .

نظرت إليه وهو يفكر ، خفق قلبها في صدرها ، داعبته ، ثم قبلته في فمه :

– أتصبحني ؟

قال سراج : لا أعرف ، ربما سأرحل معك ، سنرى يجب أن أبيع هذه الكتب أولا .

قالت هدى : آه ، كم أحبك ، داعبني بسرعة فسيدي ينتظر غداؤه .

وبعد الظهيرة حمل سراج الكتب إلى أبو زيد بائع الحرنكش الذي قرفص على عتبة الحانوت بشكلة المألوف ، إنه يتشمس ، ويبدو كأنه إستسلم إلى شيء من الفوضى ، فالوجه أعث وناحل ، يصفه فتور بين ، والسلال الموضوعة إلى جواره خاوية تقريبا .

– سلام عليكم يا أبو زيد .

رد أبو زيد : سلام أيها الشاب ذو الحسب ، ماذا تحمل ؟

قال سراج : "انها كتب " جئت لتوي لأعرض عليك مشروعاً غير مسبوق من أجل تجارتك .

نظر أبو زيد الى الشاب في تفاؤل وانتابه هم خاص ، شك في أعماقه في كل التغيرات ، والمجهود الشاق الذي تحتاجه بعض المهن التي لا تناسب روحه السكينة، وبكل تواضع سأل .

– أي مشروع يابني ، أتمنى أن تكون فكرة مناسبة .

رد سراج : فكرة رائعة ، أولاً أسمح لي أن أضع هذه الكتب ، فأنا أحملها منذ خروجي من الدار .

حط الكتب ارضا ، ثم وضع يديه في جيوبه ، ونظر الى أبو زيد ، وابتسم القى أبو زيد نظرة سريعة على الكتب ، ولكنه لم يجرؤ أن يلمسها ، فهو لم يتأكد بعد من دور هذه الكتب في المشروع الذي يرد الشاب أن يطرحه قال :

– اشرح لي ، فأنا أنتظر كلامك .

قال سراج : حسناء سوف تشتري مني هذه الكتب وتصبح مكتيباً .

قال أبو زيد : مكتيباً ، انا رجل كهل يا بني ، ولا أعتقد ان هذه مهنة تناسبني .

قال سراج : إنها مهنة رائعة ، ستكون أول مكتبة في الحي ، وستنال شرف المهنة .

— آه .. أعتقد هذا ؟

أصابته الدهشة أبو زيد من الاقتراح ، لقد تجاوز ، منذ أمد طويل ، كل هذه الآمال البسيطة ، ولم يبد أن لديه مثل هذا الطموح ، فكل ما يتمناه هو أن يفلت من سخرية حماته السليطة اللسان ، هذه المرأة الشرسة التي لا تكف عن توبيخه فيما يتعلق بتجارته البائسة ، ماذا ستقول وهي تراه واقفا في مكتبة ؟ هذا السؤال أثر فيه بشدة ، سأل :

— هل أنت واثق أنها لائقة ؟

— رد سراج : بالطبع ، من قال غير هذا ؟

— لا أعرف يا بني ، ماذا تحكي هذه الكتب ؟

— انها كتب دراسية ، كتب جادة جدا ، هل تتصور يا أبو زيد أنني سأبيع لك كتباً رديئة ؟

— لا أعني هذا ، معذرة يا بني .

وسكت ، ثم راح يفكر من جديد ، ظل سراج واقفاً ، غارقاً في أفكاره المجتهدة ، التي ظلت دوافعها الحقيقية غائبة ، فهو لن يفهم سر خشية التاجر ، وبدأ يحس بالتعب ، وفجأة رأى ميمي يظهر وسط الشمس ، أشعت الشمس ، أشعت الشعر ، بدا كأنه لم ينم طيلة الليل ،

ابتسم له سراج ولكن تساءل سراج لماذا حياء ميمي ببرود شديد ، وماذا حدث للكلب سمس ؟ ثم نسى الشاب المراهق وركز إنتباهه في أبو زيد الذي بدا كأن تساؤلاته الداخلية قد وصلت إلى نهاية .

في هذه اللحظة وقفت فتاة صغيرة ذات جدائل طويلة وعينين مكحلتين أمام المحل ، سأها أبو زيد في لامبالاه :

— ماذا تريد يا فتاة ؟

— أنا من طرف أم إحسان .

— ماذا تريد ؟

قالت الفتاة : تريد خشب شيش بلميمين ، وستدفع لك غداً .

— خذي يا فتاه ، وإتركيني في حالي ؟

وراحت الفتاه تأخذ ثم ذهبت وهي تهر فخذوها النخيفتين ، إستدارت بعد عدة أمتار وابتسمت لسراج ، تنهد أبو زيد :

— يا لها من مهنة ؟

سأل سراج : إذن ، هل قررت ؟

قال أبو زيد : إتفقنا ، كم تريد ثمننا لهذه الكتب .

قال سراج : ستعطيني ما تريد

غمس أبو زيد يده في سيالة ملابسه وأخرج حافظة نقود قذرة ، وراح
يعد القروش ، بينما غاص سراج في دوامة المغامرة .

كان الوقت منتصف النهار تقريبا عندما ترك الطفل وغاص في الحارة، ورأى أول بيت على اليسار، خادمة تنظر من النافذة تنفض سجادة .

إستعلم منها عن شيء فأشارت الخادمة بأصبعها إلى الناحية التي عليه أن يقصدها، فشكرها الطفل، ثم هرول قافزا، انها، على الاقل، عاشر شخص يسأله عن عنوان سراج :

وقف أمام منزل الشاب وراح ينادي وهو ينظر أعلى السور الحديدي :

- سراج .

لم يرد عليه أحد ، فتراجع قليلا وضع يده في شكل قرطاس حول فمه ونادى من جديد بكل صوته :

وبعد قليل فتح سراج نافذة صالة الطعام ونظر إلى الحارة وعلى التو عرف الصغير عنتر ، الطفل الذي قابله منذ شهرين في الحقول وهو يصطاد العصافير بنبلة ، يرتدي ملابس صيفية بمعنى أنه شبه عاري ، نوع من التنورة مصنوعة من قماش قدر يغطي حمامته ، كانت رأسه حلقة تربنها قطعة قماش خفيف ، لم يتغير كثيرا ، فقد بدا في نظرة عينيه نفور كأنهما تشهدان على معاناة شديدة ، قال سراج :

– إنتظري ، أنا قادم .

وخرج بسرعة من المنزل ورأى الطفل الذي كان يتسلى بإلقاء
الحجارة على نوافذ الحيوان .

– كدت ان تسبب مأساه

قال الطفل : أنا أتسلى لا أكثر .

أحاط سراج كتف الطفل بذراعيه ، وسارا في اتجاه الطريق ، كانت
الشمس تسقط أشعتها اللافتحة في كل مكان ، محدثة حرارة شديدة فوق
أنحاء الريق بأكمله ، آوى سراج والطفل إلى ظل إحدى الأشجار ، قال
سراج :

– أنا سعيد برؤيتك ، كيف حالك ؟

قال الطفل ، سيء .

– ألا تصطاد العصافير ؟

– لا ، لقد بعث النبلة .

– إذن ، ماذا تفعل الآن ؟

قال الطفل : أنا عاطل .

حمحم ، جفف أصبعه من المخاط الذي إلتصق بأنفه ، ثم أدار رأسه
وظل صامتا .

أصاب سراج الحزن لرؤية صديقه الشاب وقد بلغ أقصى حد من المتاعب ، لم يعرف كيف يعبر له عن تعاطفه ، وخلال لحظة سأل :

- والحزينة ، هل وجدت الكوخ ؟

قال الطفل : لا ، لم أجده

- ألم تر الطفل الذي سرقه ؟

قال الطفل بلهجة عبوسة : لقد مات .

- كيف عرفت ؟

- هكذا ، قلت لك مات

- كيف عرفت ؟

لقد جاء الشاب عنتر لرؤية سراج تدفعه حاجة شديدة فممارسته المختلفة في مجال الصعلكة لم تكن أكثر من بريق بلا جوهر ، فقد نزع شريانه وإضطر إلى الشحاذة ، وفي سقوطه فكر في سراج حين أخبره أنه يريد زيادة المصنع الذي تحت التأسيس معه ، لم يشك في أن يحصد بضع مليمات ثمننا لهذا .

وخاطر بكل وضوح :

- ألا تريد رؤية المصنع ؟

قال سراج : لا ، أنا لا أفكر في المصنع ، فهو لا يزال على نفس المنوال ، لا أحد يفكر في الإنتهاء منه ، إنه مجرد أطلال .

– إذن ، أليست لك رغبة في العمل ؟

قال سراج : كثيرا ، قررت أن أذهب للعمل في المدينة ، لقد فعلت خيرا بحضورك اليوم فأنا في حاجة إليك .

كان سراج قد حدد هذا المساء للرحيل عن المنزل بعد العشاء ، فمعه عشرة قروش أعطاها أبو زيد ثمناً للكتب ، وهو لا يشك في نجاح مهمته ، كان مجيء الطفل بمثابة فرصة غير متوقعة ، عليه ألا يضيعها ، مثل المرة السابقة ، ففي هذه الهاوية المجهولة المسماه بالمدينة الكبرى فإن الطفل سيكون دليلاً بالنسبة له ، إنه بلاشك يملك بعض المصادر المفيدة ، وسيساعده في مسرته إلى أن يجد عملاً ، سأله :

– هل تعرف المدينة جيداً ؟

رد الطفل : لا يوجد شخص يعرف المدينة أفضل مني ، أعرف كل حاراتها وشخاذهها

قال سراج : حسناً ، أنا واثق إنك يمكن مسعدي في إيجاد عمل .

– أي نوع من العمل ؟

– لا يهم .

قال الطفل : انصحك ألا تبحث ؟

سأل سراج : لماذا ؟

– لأنك ستخاطر بالعثور عليه .

– ثم ماذا ؟

– سيكون الأمر مرعبا بالنسبة لك .

قال سراج : لا ، لقد قررت ، إسمع ، لديّ الآن بعض النقود وقررت الرحيل هذا المساء إلى المدينة ، هل يمكنك مقابلتي هناك ؟

– أين هناك ، تعرف أنها مدينة كبيرة .

– حسبما تشاء ، اختر المكان الذي يعجبك .

دعك الطفل همجته وفكر بضع ثوان ، وقال :

– سأنتظرك تحت تمثال النهضة ، هل تعرف أين يوجد ؟

قال سراج : نعم ، أتذكره ، إنه في ميدان محطة القطار .

قال الطفل : بالضبط سأنتظرك هناك هذا المساء في حوالي التاسعة

قال سراج : إتفقنا ، سلام عليكم .

قال الطفل : أنت لم تعطني شيئا من أتعابي ؟

قال سراج : معذرة ، لقد نسيت .

وأخرج قرشا من جيبه ثم مده إلى الطفل :

- اتمنى أن يكفيك هذا حتى المساء .

قال الطفل : سأرتب أمري إذا لم يكن أمامي ديون .

عاد سراج إلى المنزل ، والقلب ملئ بالفرحة والزهو ، فهو واثق أنه سوف يصبح إنسانا جديدا ، طراز من رجال الغد ، إبتسم وهو يفكر في الانتصار الذي سيحققه في عالم المدحورين في المساء وأثناء العشاء إنتابه التعب ، وهو يحس بنفاد صبره فالوجبة قد تناولها ببطء شديد ، وكأن هدى تعمدت أن تؤخر لحظة الرحيل ، فهي تأكل ببطء وتتوغل لحظة وضع الأطباق وفرش المائدة ، بدت شاردة ، تتحرك كأنها الآلة ، وعلى شفيتها إرتسمت إبتسامة باهتة ومع ذلك فعليها الرحيل معه ، لقد أقنعها سراج أخيراً ، سوف تصحبه هدى في مغامراته العجيبة ، لكننا لا تبدو مرتبكة لإقرباب الرحيل الذي يعني بالنسبة لسراج بداية حياة جديدة تملأها المخاطر غير المأمونة ، وتضاعف لا مبالاها الغيبية من هياج الشاب ، ومن وقت لآخر ، يرمقها بنظرة إستقرار ، مليئة بالتوسل ، كي يجعلها تسرع ، لكن هدى بدت كأنها لم تفهم شيئاً .

رفيق هو الوحيد الذي لاحظ عصبية أخيه الشاب :

- ماذا بك ؟

رد سراج : لا شيء .

- من الآن فصاعدا ، أتمنى أن تلتزم الهدوء ولا تزعجنا بحكاياتك الغبية عن الهروب والعمل ، يمكننا أن نعيش سعداء الآن ، وتنام حتى آخر أيامنا ، لقد تخلصنا من هذا الزواج الملعون ، وأنتم مدينون لي .

قال سراج : لا يهمني هذا الزواج .

- أنت ولد جاحد مثلما قال أخي جلال ، جحود هذا الولد يدمي قلبي ، يجب أن تقتله فيمثل هذه الروح في البيت لا يمكننا أن نعيش في هدوء .

بدا جلال كأن أحدا قد ضربه بشدة ، أمسك رأسه بين يديه واستند على المائدة وراح يدق في طبق الطعام الموضوع أمامه بعينين مفتوحتين جيدا ، فليست لديه القوة ليتحرك ، أما رفيق فقد آلف هذا الجو من الكسل الشديد الذي يرزح فوق أخيه الأكبر ، بينما يدق موقفه المنقد جرس الإنذار حيث ولد لديه مشاعر منحوسة .

- ماذا بك حتى لا تأكل ؟ يبدو عليك كأنك هزمت كالعادة ، هل لا زال الفأر يحرمك من النوم ؟

قال جلال : ليس الفأر ، بل أبوك يا عزيزي رفيق ، فأنا خارج من كارثة حقيقية .

قال رفيق : ماذا فعل لك ابي ؟

رد جلال : لقد أيقظني طيلة النهار ، بشررفي ، إنه عمل إجرامي .

– متى حدث هذا ؟ اليوم ؟

قال جلال : لا أعرف ، ربما اليوم ، ربما منذ أيام ، لا يهم فأنا منهمك تماما .

قال رفيق : ماذا يريد ؟ لقد نزل ليراك في غرفتك ، وهذا يدهشني فيه.

قال جلال : لا ، أنه يتزل ليراني في غرفتي ، فهذا أقل أهمية ، ولكنه أرسل لي هذا الرجل الذي بلا قلب .. وأشار برأسه الى العم مصطفى ، الذي أجبرني أن أتبعه إلى أعلى .

ووعدي أن يحملني فوق كتفيه لكنه بالكاد أسندني ، بعد إلحاح طويل.

– يا لها من قصة ، ولكنك لم تخبرني ماذا كان ابي يريد ؟

– اعتقدت أن الأمر يتعلق بجريمة قتل ، سألني أن أوبخك ، وأن أخبرك ألا تنسى إنه السيد ، يبدو أنك تريد قتل الحاجة زهرة .

– آه ، أليس أكثر من هذا ؟

قال جلال : نسيت أن أهنئك .

قال رفيق : لا عليك ، من الآن فلن تجرؤ هذه العاهرة الضخمة على الحضور هنا ، ولنذهب بزيجاتها الدساسة إلى الجحيم .

قال جلال : نحن مدانون لك بجميل أبدي ، يا عزيزي رفيق ، أنت بطل .

قاطع العم مصطفى الذي كان طيلة هذا الوقت يأكل بهدوء ، وكأن عليه أن يظل محتفظا بكرامته : ليست سوى صبي قليل الأدب ، لقد ارتكبت خطأ كبير يتعلق بسمعنا ، فالحاجة زهرة ستذهب إلى كل مكان لتحكي ما فعلته بها ، ماذا سيقول الناس ؟

قال رفيق : أتبول على الناس .

قال العم مصطفى : ياللعار على أسرتنا .

خشى سراج أن يطول الحوار ولكن رفيق ترك عمه دون رد شاف، بل انفجرت عنه إبتسامة ساخرة، لقد نجح دون أي شك في إبعاد هذا البؤس الذي يتمثل في زواج العجوز حافظ المعد سلفا بالكثير من الدمثة، بدا أنه يكتسي بالهدوء ويأكل بشهية كبيرة ، ولكن بعد لحظة نظر إلى عمه، ولم يقاوم نفسه في أن يلقي له بأخر نكتة ، قائلاً :

- يا عم مصطفى ، وعدتك أن أمنح أبي لفظ البكوية وهو يستحقها جيدا بمثل هذه الأليطة ، يمكنه بكل سهولة أن يقبل منصب "وزير" .

قال العم مصطفى : كيف تجرؤ أن تتكلم هكذا عن أبيك ، ثم ما حكاية هذا الاليطه ، ألا تستحي ؟

قال رفيق : يا عم مصطفى لم تخبرني أنك لا تعرف ان لابي أليطة .

- بشرفى ، لم أكن أعرف أنت ترتجل الآن قصصا ساخرة حول أبىك.

قال جلال : بل هو الذى أخبرنى .

أشار العم مصطفى: أنا لم أخبرك بشيء قط ، أنتم الإثنان قليلا التربية، وأبوكما تعب من دناءتكما ، وأبلغنى أنه سوف يترككما هنا وسيعود إلى أرضه.

قال رفيق: الحمد لله ، هل سيفعل هذا حقاً ؟

قال جلال: أخيراً ، سيكون النوم نصيبنا ؟

لقد كذب العم مصطفى عن قصد ، كي يعطى لنفسه مهابة وكي يكتسب حميمية العجوز حافظ ، لم يأخذ فى حسبانته أن مثل هذا الأمر لن يعجب أبناء أخيه ، وأنه سيجذب إنتباههم ولكن الوقت متأخر على الإنسحاب ، حاول أن ينقذ الموقف بأن يلتزم صمتا غامضا .

قال رفيق :

- هيا، إخبّرنا بالحقيقة يا عم مصطفى .

قال العم مصطفى: لا شيء آخر يقال أخبرتكما بكل ما أعرفه، وعليكما أن تصدقاني .

قال رفيق: كيف يمكننا ألا نصدقك، يا عم مصطفى وأنت عبقرى هذا البيت ؟

قال جلال : لقد ساحتك عم فعلته بي في ذلك اليوم ، لكن لا تفعل ذلك ثانية ، رآهم هنا ، كانت هدى قد إنتهت من المائدة ، الآن سيقوم الجميع ليحرقوا بأسرقتهم الموقورة ، ما أن رآهم سراج يذهبون حتى قام بدوره وراح يغلق على نفسه حجرته .

وبعد ساعة تسلل خارج المتزل وأسرع إلى الطريق ، وكانت هدى تنتظره تحت الفانوس وقد تزينت تماماً وكأنها ذاهبة إلى نزهة ، وفي الضوء الخافت الذي يغلقها بدت بكامل زيتها شاحبة الوجه وكأنه أقرب إلى عروس المولد ، كانت هادئة ومنصاعة ، أسرع لملاقاه سراج عندما رآته، قال سراج :

— ماذا جرى لك ، يا الله ، إعتقدت أن هذا العشاء لن ينتهي .

قالت هدى : بدمتي ، بذلت كل ما بوسعي .

قال سراج : هيا بنا .

قالت هدى : قبلي أولاً .

قبلها سراج ثم أمسك يدها وسارا في الطريق ، في البداية تقدما بخطى مسرعة ثم شيئاً فشيئاً أبطنا الخطى وتوقفا لحظة وتبادلا النظر والإبتسام ، كان الليل مضاءا والمساء ناصعة مرصعة بالنجوم الحقيقية القريبة منها أحسا أنهما يمكنهما قطفها كالثمار الناضجة ، هبت نسمة رقيقة من الريح ، حاملة معها رائحة الحشائش ومن بعيد ، هبت روائح المدينة

الكبرى العبقرة العنيفة ، تنسم سراج بلذة ربح الحرية التي تغذيه ، أحس
بها على وجهه ، وشعر بها على يديه .

بدت كأنها تعود للحياة بعد خروجها من القبر ، غمرته فرحة كبرى ،
واستدار نحو الفتاة وسألها :

– هل أنت سعيدة ؟

قالت هدى : نعم ، سعيدة لأنني معك .

قال : أخيراً يمكنني أن أعمل .

وإستغرق في التفكير في المجهود الذي سيبدله ، سيساهم في إثراء
البشرية وسيشارك في القوى التي تحرك العالم ، ولن تكون حياته عقيمة ،
سيكون وجوده مفيداً مليئاً بالمفاجآت ، لذا ، فهو يتعجل الوصول إلى
المدينة ، قالت هدى :

– حاول أن تجد عملاً أقل إرهاقاً .

– لماذا يا تافهة ؟ على العكس سأبحث عن أشق الأعمال .

– قد تسقط مريضاً

– لن أسقط مريضاً ، من تتصوريني ؟ أنا قادر على ممارسة أي عمل .

فكرت هدى ثم قالت :

– هل يمكنك أن تعمل حوزياً ؟

قال سراج : لا ، ليس عملاً جاداً .

قالت هدى : إنه بالغ الجدية وهو في نفس الوقت مسل جداً ، فلن تفعل شيئاً طيلة النهار سوى أن تغني في عربتك ويمكنك أن تأخذني في نزهة .

قال سراج : إسكتي ، لا أريد ، أنه ليس عملاً جاداً ، هل تسمين هذا عملاً ، أن أجلس طيلة النهار أقود عربة حنطور ؟ أريد عملاً حقيقياً ، هل تفهمين ؟

قالت هدى : يا خسارة ، كان يمكنك أن تأخذني في نزهة ، أحب كثيراً أن أركب عربة .

— فيم تفكرين يا فتاة ؟ هيا كوني جادة ، لسنا هنا بدافع التسلية .

قالت هدى : خسارة ، إفعل ما تريد .

وبلغا آخر العمار ، فوجدا نفسيهما على الطريق يحوطهما الريف الواسع والضوضاء الصاخبة القادمة من بعيد ، نظر سراج إلى الطريق أمامه ، أحس نفسه ضائعاً مع أضواء الفوانيس الخافتة ، أبطأ الخطى متردداً أمام ما يبذله من مجهود شديد ، تلاشى حماسه فجأة بدأ يحس بالندم داخل أعماق قلبه ، فلاشك أن وجوده مرتبط بدفع البيت الذي تركه لتوه كي يجرب المغامرة ولا يمكنه أن ينساه بسهولة ، إنه عروة وثقى بالنسبة له ، يصنع الخمول والنوم الذي يعجز عنه الوصف فهو متعلق بمصير يود خيانتته ، كم هو مجنون حين يعتقد أنه مختلف عن أقرانه

وأن يكرس نفسه لمجهود عضلي خارق ، فكل هذا ليس سوى عين الخطر، راح يفكر في خوف من المكائد الشريرة التي تنتظره في المدينة الكبرى .

في البداية فكر في المصانع حيث عليه أن يعمل من الرابعة صباحا ، إرتعد سراج من هذا الاكتشاف ، ثم هناك أيضا الترام الذي يمشي في طريق مجنون دون مراعاة للناس الذين يدهسهم ، كما أن هناك الحكومة، هذه الحكومة سوف تقبض عليه وترمي به في السجن مما آثار قلقه أكثر ، الحكومة كما قال أبوه نقيض على المتمردين ولكن من هو المتמרء ؟ هل رغبته في البحث عن عمل وأن يختلط بالبشر المجتهدين تعد من أعمال التمرء ؟ لم يفهم سراج لماذا تعتبر الحكومة أن حبه للحياة العملية حالة من التمرء ضد كل القوانين الموضوعة ، بدا له هذا الأمر غريباً.

وأصابته فكرة العساكر ببعض الغثيان ، وأحس فجأة بخيبة أمل ودارت رأسه فتوقف وتأمل الفتاة للحظة ، ثم قال:

– إنه لا يزال بعيدا ، الا تتوقف لحظة ؟

قالت هدى : حسنا ، هل تعبت ؟

رد سراج : قليلا ، لنجلس لحظة ، لحظة واحدة فقط .

وجلسا على طرف الطريق وأغلق سراج عينيه ، فلا توجد أي سيارة تمر على الطريق ، والصمت يسود المكان ، لا يسمع سوى خريير السواقي

الذي لا يتوقف تسكب مياهها الموحلة عبر الحقول الممتدة في الليل ،
سأل سراج :

– هل تعتقدي أننا إبتعدنا كثيرا عن البيت ؟

قالت هدى : لا ، هل تريد العودة ؟

قال سراج : لا أعرف ، أريد أولا أن أنام قليلا .

قالت هدى : كما تريد ؟

وتشاءب سراج طويلاً ، نظرت إليه هدى وراحت تشاءب مثله ، ثم
صم كل منهما الآخر إليه ، وناما متناسين العناية الذي يبذله الناس تحت
تلك النجوم البطيئة الكسولة
